
١
روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
مصاص الدماء و
أسطورة الرجل الذئب
ماوراء الطبيعة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

مصاص الدماء وأسطورة الرجل الذئب

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة

لا تشوبه شبهة الترجمة أو

الاقتباس

●

بريشة

الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف

الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة- ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت ٢٨٣٥٠٠٤- ٥٩٠٨٤٥٥- ٢٥٨٦١٩٧ فاكس - 202/2596650 ج.م.ع.

4 شارع بدوي / محرم بك - الإسكندرية

مقدمة..

أعرفكم على نفسي: الدكتور رفعت إسماعيل أستاذ أمراض الدم سابقًا بجامعة (...) وعدد لا بأس به من جامعات أوروبا وأمريكا، السن يناهز السبعين.. عزب، لأن حياتي الصاخبة لم تدع لي الفرصة أبدًا كي أكون كالآخرين..

روايات مصرية للجيب



روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

١



بقلم :
د. أحمد خالد توفيق



لقد عرفت أشياء كثيرة.. فتحت تابوت الكونت (دراكيولا).. صارعت المذءوب في رومانيا.. بحثت عن وحش (لوخ نس) في اسكتلندا، قابلت رجل الثلوج الرهيب في التبت، ولبيت نداء النداهة في غيطان الذرة المظلمة.. وعرفت (الزومبي) في جامايكا.

كل هذا سأحكيه لكم بالتفصيل في هذه السلسلة.. لكني - مرة أخرى - أرجو من ضعاف الأعصاب ومرهفي الحس أن يمتنعوا عن القراءة، ويذلك يوفرون على أنفسهم ساعات من التوتر والهلع وخشية الظلام..

اليوم أحكي لكم قصتي مع مصاص الدماء..

* * *

١ - ليلة رهيبة..

كنت في ذلك الوقت شابًا في الخامسة والثلاثين من عمري لا أعرف شيئًا عن عالم ما وراء الطبيعة وكنت أؤمن أن العلم قد عرف كل شيء.. كنت ساذجًا بالطبع.. سافرت إلى بريطانيا لحضور مؤتمر أمراض الدم الذي يحضره نخبة من أساتذة هذا العلم في

العالم كله، لكن كما هو معروف - ليست المحاضرات مشوقة إلى هذا الحد، وقد قضيت في ذلك اليوم أربع ساعات من أسود ساعات حياتي أصغي لكلام كثير عن سرطان الدم. وأنيميا البحر المتوسط... و... و...

كان الأطباء الجالسون قد أصيبوا بذلك النوع من الملل والتعاسة والتجمد الفكري الذي أؤثر أن أسميه (ذهول المؤتمرات)، كانوا جميعًا قد فقدوا الاحساس بظهرهم وأطرافهم. وتحولت أردافهم إلى جزء من المقاعد، وبعضهم أخذ يزجي الوقت في الحديث همسًا وهم يضعون أيديهم على أفواههم كتلاميذ المدارس..

- شكرًا..

وللحظة لم يصدق هؤلاء البؤساء آذانهم لكن الرجل كان قد انتهى بالفعل من محاضراته الطويلة، من ثم تعالت تنهدات العرفان بالجميل، وبدأوا يصفقون له شاكرين!

كان المحاضر كهلًا وسيمًا اسمه (ريتشارد كامنجز) قابلته في مصر أكثر من مرة وانبهرت به بشدة، كان شامخًا مهيبًا عصبيًا مغرمًا بالتاريخ والفن وكان يعشق تاريخ الفراعنة وكانت هذه نقطة تلاقينا..

بعد المحاضرة قابلته، وعلى الفور هش وبش لي وبدت السعادة على وجهه، بل إنه صافحني (وهو شيء غير معتاد من

الانجليز) ثم إنه سألني عن رأيي في المحاضرة فكذبت عليه في كياسة قائلًا إنها رائعة، دعاني إلي بيته الريفي في (يوركشاير) ؛ لأنني - كما قال - إنسان متحضر وشديد الاخلاص للعلم..

لهذا - وكما علمتني التقاليد الانجليزية الصارمة - وجدتني أجتاز مدخل حديقة البيت الإنجليزي الجميل في تمام السابعة مساء.. وكان القمر يرخي ضوءًا هادئًا رقيقًا على غصون اللبلاب المتدلية فوق سقف البيت المنحدر، وفي الحديقة كنت تشم روائح غير مألوفة لزهور لا تعرف اسمها..

وفي الداخل كان البيت أنيقًا بسيطًا، بيت أسرة كاثوليكية متدينة.. وفي قاعة

الجلوس كانت هناك مجموعة كبيرة من الصلبان الأثرية، ولوحة كبيرة للعشاء الأخير، وكانت زوجته في منتصف العمر مهذبة رقيقة، أما ابنته كاترين فكانت مراهقة لكنها أكثر تعقلًا من سنها..

وأدركت كم هم متدينون حين تلوا قبل العشاء صلاة المائدة، من ثم شعرت بالخجل من نفسي لأني نسيت البسملة على الطعام قبل أن أبدأ الأكل.. تمتمت أن بسم الله أوله واخره، وشرعت أملأ بطني من الأصناف جميلة المنظر، شنيعة الطعم، التي عرف بها المطبخ الانجليزي في أوروبا كلها..

بعد العشاء - وفي حجرة المعيشة المريحة - جلس د. ريتشارد جوار المدفأة

يدخن غليونه ويرشف القهوة في استمتاع وقد بدا لكلينا أن الحياة لن تكون أبدًا أروع مما هي عليه الآن..

قال د. ريتشارد: كيف تشعر وأنت من سلالة الفراعنة هؤلاء العباقرة؟

ابتسمت ولم أدر بماذا أرد، فغمغمت:.. بالندم وبالحسرة لأني لم أحفظ حضارتهم وكل ما اكتشفوه.. أحيانًا يخيل لي أنه لم يعد هناك ما يمكن اكتشافه بعد كل ما اكتشف حتى اليوم..

أعتقد أن زمن (الكشوف) قد ولى وبدأ زمن (التطوير).

وهنا يبدأ دور رجل علم مثلي يؤمن بعلم ما وراء الطبيعة ويؤمن أن كل

أسطورة لها أصل ما لم يحاول القدماء أن يتوقفوا عنده، وهكذا نفتح أبوابًا جديدة..

وجال ببصره في الحجرة الخالية.. ثم همس:

- خذ عندك أسطورة الكونت دراكيولا.. إن أحدًا لم يحاول أن يتأمل فيها..، كانوا يبحثون في الكهرباء والموجات الكهرومغناطيسية والانشطار النووي والمضادات الحيوية فلم يتوقفوا عند هذه الأسطورة أبدًا، هنا أتي دور رجل علم مثلي يؤمن أن هذه الأسطورة لم تأت من فراغ ويتوقف لحظة عندها..

هناك شواهد تاريخية عديدة ومريبة.. الدم هذا السائل الأحمر الغامض رمز

الحياة والموت معًا.. خذ عندك طقوس شرب الدماء في الهند.. المومياوات ذات الأنياب التي وجدوها في الصين، ومآدب أهل أسبرطة التي كانوا يحتسون فيها الدم الممزوج بالخل والتوابل، ودماء السلحفاة البحرية التي يشربونها لعلاج الروماتيزم في جامايكا..

وكتب السحر في العصور الوسطى، وكلها تتحدث عن طرد مصاصي الدماء كقضية مسلم بها..

وهنا نبدأ - بمرونة فكرية - نجزم أنه في وقت ما، في مكان ما، تواجدت مخلوقات كابوسية تعيش على الدماء مثل دراكيولا..

- آوه!

كان هذا هو صوت كاترين.. وكانت قد دخلت الحجرة لتوها فسمعت آخر جملة، وسرعان ما اعتذرت بأنها ترغب في الصعود لحجرتها..

قال د. ريتشارد:

- هكذا أفضل.. هناك أشياء لا يجب أن يقولها المرء أمام النساء.. أنت تفهمينني..

واتجه نحو النور الكهربائي وأطفأه، فساد الظلام الحجرة فيما عدا نور المدفأة الهادئ الخافت..، وقال بطريقة درامية مؤثرة.

- هكذا يكون الجو مناسبًا لهذه الأحاديث الرهيبة!!

أحسست بالرجفة تسري في ظهري، وكان منظر لهيب المدفأة يذكرني بالمشوار الذي ينتظرني بعد هذه الامسية في العودة لفندقي.. البرد والخوف..

توقف د. ريتشارد أمام إحدى اللوحات المعلقة يتأملها علي ضوء المدفأة المتراقص، وهمس:

- لقد بحثت وبحثت سنوات طويلة مع أحد رفاقي من علماء التاريخ.. واليوم أستطيع أن أقول إننا برهنا بالدليل المادي على وجود الكونت دراكيولا..

دوت الكلمة الكابوسية في الظلام فأجفلت لها في مقعدي، والواقع أن د. ريتشارد كان مخرجًا مسرحيًا رائعًا..

القصة كما يعرفها كل الناس هي قصة ذلك الكونت الذي عاش في ترانسلفانيا في القرن الرابع عشر.. كان شريرًا بكل ما في الكلمة من معان، ولكنه لم يكن من الموتى الأحياء.. إلا أن كاتبًا نشطًا أسماه (دراكيولا) أي الشيطان، وخلده "برام ستوكر" في قصته الشهيرة التي لم يزل الناس يرتجفون منها حتى اليوم.. ثم السينما العالمية.. "فنسنت برايس.. لون شاني" ليكملوا الصورة..

اليوم أقول أنا: إن (دراكيولا) وجد فعلًا كما صورته القصص دون أية مبالغة..

* * *

٢ - خادم الكونت..

قلت في حماسة:

- "لكن كلينا رجل علم، وكلينا يعرف أن مالا يرى ولا يسمع ولا يشم ولا يعقل، هو ببساطة غير موجود..". ابتسم د. ريتشارد في ثقة.. ثم اتجه نحو خوانٍ في ركن الغرفة وفتح درجه وأخرج ظرفًا ممتلئًا ناوله لي، وقال:

- اقرأ هذه الأوراق قبل أن تتحدث عن العلم..

قبل أن أرد دخلت علينا (مسز كامنجز) باشة الوجه.. وبانجليزية حاولت أن أجعلها راقية شكرتها على العشاء.. ثم بدأنا حديثاً عن الطقس.. ثم أطريت بيتهم وأبديت إعجابي بلوحة العشاء الأخير المعلقة.. فشرعت تشرح لي قصة اللوحة ونظرات الدهشة المرتسمة على وجوه الحواريين... و... و...

- هل تعلم سر تشاؤم الغربيين من سقوط الملح على المائدة؟

فهززت رأسي معترفا بجهلي.. قالت:

- لأن (يهوذا) الخائن مرسوم في اللوحة وقد انسكب الملح على المائدة أمامه.. هل ترى وجهه؟ هذا وجه ارتسمت عليه كل خطايا البشر.. إنه خاضع

للشيطان لكنه مستسلم لهذا ولا يجد سبيلًا آخر..

كنت في هذه اللحظة قد دخلت في عالم اللوحة لكني كذلك كنت أفكر في المسافة الطويلة التي تفصلني عن الفراش الدافئ وقراءة هذا المظروف الذي أحمله..

وحين عدت للفندق تمددت في الفراش وتأملت المظروف الذي أعطانيه د. ريتشارد، وكان مليئًا بأوراق قديمة وصور فوتوغرافية..

كانت إحدى الصور لقصر أثري غريب، وأخرى لتابوت رخامي مغلق، ثم صورة لشيء لم أفهم ما هو، ثم صورة للوحة زيتية تمثل رجلًا ملتحيًا طويل

القامة.. أما قطعة الورق الصفراء المهترئة فكان بها خريطة مرسومة بحبر أسود لقصر مجهول به سراديب سميت بأسماء سلافية لم أعرف حتى كيف أقرؤها..

ألغاز كثيرة جدًا..

أخيرًا ورقة بالإنجليزية - بخط د. ريتشارد - تقول:

"لقد بحثنا شهورًا في سراديب قصر (الكونت دراكيولا) في ترانسلفانيا، وهو الذي منعت السلطات السياح من زيارته لأنه آيل للسقوط في أكثر من موضع..، وأخيرًا وجدنا الخريطة المرفقة التي دلتنا على توابيت عائلة الكونت في سرداب قديم مليء بالأتربة والوطاويط...

وقد فتحنا التوابيت كلها حتى وجدنا مومياء الكونت وعلى صدرها وجدنا صندوقًا عاجيًا فيه رسالة كتبها خادم الكونت للأجيال القادمة:

- أكتب هذه الرسالة لمن يأتون بعدي كي أحذرهم من خطر داهم شنيع، لقد اختار الشيطان هذه المنطقة التعسة مهدًا له..

إن (دراكيولا) هو أول مصاص دماء يولد في هذا البلد، إن سيدي الكونت معروف بين الفلاحين بقسوته وطغيانه واستخدامه جيشًا من المرتزقة لفرض سلطانه، كل هذا جعلهم يسمونه (الشيطاني) أو (دراكيولا)..



وقد فتحنا التوابيت كلها حتى وجدنا مومياء الكونت وعلى صدرها
وجدنا صندوقًا عاجيًا ..

بدأ الكونت في كل مساء يشرب مزيجًا لعينًا من دم الخنازير والنبيذ والتوابل بدعوى أنه يعيد الشباب، وبدأ يدرس السحر الأسود.. ويزداد انعزالًا وغرابة..

لقد بدأ وجهه يستطيل وصوته أخذ نبرة عواء الذئب في الليالي المقمرة، وصار يخرج في المساء ويعود في الفجر وينزوي بالساعات في بدروم القصر وحيدًا.. بل إنه لم يعد يأكل..

وفي كتب السحر وجدت تفسير حالته.. إن هذا المزيج الذي يشربه يقود إلى الخلود بأشنع الطرق.. إنه يحيل من يدمنه إلى خفاش بشري يتغذى بدماء

البشر ليلًا وينام في تابوت نهارًا ويموت إذا رأى ضوء الشمس..

وكان لابد أن أعرف..

صباح اليوم التالي استجمعت شجاعتي ونزلت بدروم القصر حيث توابيت أسرته، وكانت رائحة العطن تملأ المكان، والفئران تمرح في حرية تامة، وفي تابوت رخامي وجدت ما كنت أبحث عنه (هذا الجزء غير واضح في المخطوط) لا تنفس. ووجهه شاحب شحوب الموتى وعلى شفتيه قطرات من دماء لم تجف بعد، وعيناه مفتوحتان تحدقان في لا شيء..

اقتربت من شفتيه واستجمعت شجاعتي وفتحتها.. فوجدت صفين من

الأسنان الدقيقة المدببة كأسنان الضواري، انتابني ذلك الرعب المجهول الذي يشل العقل تمامًا.. جريت في هلع وقد تسلطت علي فكرة واحدة: الهرب.. لا أدري لأين.. ونسيت أن أعيد غلق التابوت..

إذن غدا الكونت مصاص دماء، وصار عالة على نفسه وعلى الأخرين، إذن كان أهل القرية محقين حين كانوا يرسمون الصليب حين يمرون بالقصر، وإذن كان هذا هو سر جثة المتسول العجوز التي وجدوها قرب القصر ملقاة على الكلأ وفي عنقه ثقبان أحمران..

لهذا نزع الكونت الستائر البيضاء والأيقونات، ولهذا كان ذلك العواء الذي

يهز القصر في الليالي القمرية.. ولهذا.. ولهذا.

عدت لكتب السحر أقرؤها. إن مصاص الدماء كابوس.. ومن واجبي أن أجد أنا دواء لهذا الكابوس خاصة أنه لم يمتص دمي بعد ربما لحاجته إلي.

إن قتل مصاصي الدماء أمر سهل، فهو يموت من أي رمز ديني.. إنه مخلوق رمزي، وجوده رمز ومصرعه يتم بالرموز، الضوء واللون الأبيض والفضة والكتب السماوية كلها تقتله، لكن الطريقة الفعالة هي وتد من الخشب يدق في صدره، ثم تلي صلاة الموتى عليه، وتحذر كتب السحر من أنه: كما أن مصاص الدماء رمز فموته رمز، إنه يعود للحياة مرة كل

مائة سنة ليعيث في الأرض فسادًا، ثم إنه بعد أن ينشر الرعب والموت يقتل على يد إنسان لم يتلوث... و...

وهنا أحسست بشيء غير عادي في الحجرة.. رفعت رأسي فوجدت الكونت (دراكيولا) واقفًا على رأسي يسد الباب وهو يبتسم ابتسامة صفراء رهيبة، لقد جاء الليل دون أن أدري وحين نهض وجد غطاء التابوت مكشوفًا وأدرك أنني فهمت!

ونظرت إليه في هلع..

لم يعد وجهه يمت بصلة للوجه الذي عرفته.. ناباه الفظيعان.. بشرته الشاحبة المتجعدة.. رائحة الكبريت التي تتحدث عنها كل كتب السحر، تحرك أمام المرآة

فلم أجد له صورة، حتى الشمعة لم تترك له ظلًا على الحائط..

صرخت: يا إلهي.. أنقذني!

أجفل.. وتراجع لحظة.. فجريت للباب كما لم أجر في حياتي إلى غرفتي.. أغلقت الباب بالمفتاح، وعلى الفراش أغمي علي، وكان آخر ما رأيته هو مقبض الباب يتحرك، لكن الباب كان مغلقًا..

نعم.. صار الكونت هو خليفة الشيطان في الأرض، إنه مريض وهو يعلم ذلك، ولقد قررت أن أريحه..

سأقتله اليوم، كتب السحر قالت إنه سيموت على يدي رجل لم يتلوث.. وأنا هو ذلك الرجل، أنا القاضي والمدعي

والجلاد معًا، سأنزل إليه بالخنجر الفضي والثوم وقبل كل شيء. بإيماني..

ولئن كنت ملوثًا ولقيت مصرعي فليعلم من يجد هذه الرسالة ما علمته أنا ولينتظر عودة الكونت كلما مرت مئة عام، ولينتصر من هو منا على حق.

خادم الكونت / جيسيب ميخائيل
في عام الرب ١٥٩٩

بعد نهاية الرسالة وجدت تعليقًا صغيرًا بخط د. ريتشارد يقول: إنهما وجدا مومياء الكونت وعلى صدرها هذا التحذير للأجيال القادمة، وأن هذا يعني أن الخادم وفق في مهمته..

انتهت المذكرات..

أغلقت مفتاح الأباجورة وأغلقت عيني لأريحهما في الظلام.. إذن فهذه الخزعبلات هي ما يشغل ذهن العالم العظيم.. وكل هذا الكلام الأبله الذي يقولونه في أفلام الرعب الرخيصة عن الهنود والأسبرطيين ومومياوات الصين... هراء..

ومضيت أسلي نفسي بمحاولة تخيل شكل الشر في العالم.. غول أحمر العينين.. أخطبوط له ستة أذرع.. لم أستطع.. ولسبب لا أدريه لم تفارق ذهني صورة وجه يهوذا في لوحة دافنشي.. النظرة التعسة الآثمة.. نظرة الخاطئ الذي لا يملك سوى أن يخطئ..

ولم أدر كيف، ولا متى غرقت في سبات عميق..

* * *



بعد نهاية الرسالة وجدت تعليقًا صغيرًا بخط د. (ريتشارد) يقول :
-إنهما وجدا مومياء الكونت وعلى صدرها هذا التحذير للأجيال القادمة ..

٣. المومياء..

في اليوم التالي وبعد انتهاء جدول أعمال المؤتمر لهذا اليوم، قابلت د. ريتشارد في كافتيريا المؤسسة، يرشف القهوة ويدخن.. حييته وقد بدا لي أن الليلة السابقة كانت مجرد شيء سخيف.. وبعيد جدًا..

قلب د. ريتشارد الكريمة، على سطح فنجانه، ثم سألني:

- قرأت الأوراق؟

- نعم..

ـ وما رأيك؟

صارحته برأيي في الموضوع كله، فالتمعت عيناه غضبًا ووضع فنجانه في الطبق:

- خزعبلات؟! أنت تظن أنني وواحد من أعظم علماء التاريخ في أوربا كنا ضحية خدعة قذرة لفقها لنا أحد الظرفاء.. حسن.. لقد كلف هذا الظريف نفسه ما لا يطيق وأعد كل هذه الأوراق، وأعد المومياء وانتظر سنوات عديدة حتى يخطر لأبله مثلي أن يبحث في هذا السرداب حتى يجد هذه الأشياء.. يا لها من دعابة!

- ليس هناك مايثبت رأيي لكن ليس هناك ما ينفيه.

هز رأسه في ضيق، ثم عاد لبروده الموروث وقال:

- أريد منك أن تأتي إلي هذه الليلة.. هناك شيء جديد أريد أن تراه.. نفس الموعد..

مرة أخرى على العشاء أجلس أمام نظرات يهوذا الآثمة، على الناحية الأخرى من المائدة يجلس البروفسور "ماكس لوفارسكي" وهو - كما عرفت أنت - يهودي لم يكف لحظة عن الحديث عن ماعاناه في معتقلات النازيين، لماذا خلق الله العلماء مملين إلى هذا الحد؟

بعد العشاء التفت إلي د. ريتشارد، وقال:

- إن ما سأريه لك الآن هو خلاصة بحث سنوات من عمري أنا والأستاذ (لوفارسكي)، لا أطالبك أن تقتنع، لكني أطالبك - وهذا من حقي - بالاحترام لكل ما ستراه، اضف لهذا ان ما ستراه هو سر سيظل طي الكتمان نطق العبارة الأخيرة بلهجة مرعبة تعمد الضغط على كلمة (سيظل) فشعرت بالرهبة، وقلت:

– أعدك بهذا..

نهضت معهما إلى القبو - قبو البيت الانجليزي الأنيق حيث رائحة الخمر المعتق والعطن ورائحة شيء ما لم أستطع أن أحبها.. أزاح د. ريتشارد الخيش عن صندوق مغلق في أحد الأركان.. وفتحه ثم هتف بلهجة مسرحية:

- أيها السادة.. ها هي ذي مومياء الكونت دراكيولا..!

من العدل أن أقول إنني لم أشعر برهبة ولا فضول ولا شيء على الإطلاق.. بل ظللت محتفظًا بتعبير رجل العلم الذي لا (يندهش) من شيء ولكن (يهتم) به.

كانت مومياء عادية لها كل مزايا وعيوب أية مومياء أخرى.. جلد متأكل.. خصلات شعر متناثرة.. أنف مجدوع.. شيء واحد كان مختلفًا.. الأسنان..، لماذا كانت في فك هذا الشيء تلك الأنياب الحادة الشبيهة بأنياب الذئاب..؟

ابتسم د. (كامنجز) في تشف.. وهمس:

- ما رأيك..؟

لم أرد بل سألت (لوفارسكي):

- كيف استطعم إحضاره هنا؟

- لقد نجحنا في تهريبه بوسائل معقدة على أنه شحنة أدوات حفر، والسلطات في ترانسلفانيا لا تعرف حتى بوجوده هنا.. لهذا لم تبحث عنه أصلًا..

أشعل د. (ريتشارد كامنجز) عود كبريت وقربه من المومياء.. فجأة انطفأ.. فهتف:

- "هل ترى؟ ثمة غاز خامل يتصاعد من هذه المومياء.. " لم أستطع أن ابتلع كل هذا.. لكنه واقع.. أمامي الآن الدليل الحي على خطأ الافتراضات العلمية وعلى وجود السحر، وعلى قابلية كل الأساطير للتصديق وعلى...

سألت د. (ريتشارد):

- لكن لماذا تضيعون كل هذا الوقت والمجهود؟

- الحقيقة..

قالها د. (ريتشارد) في بساطة.. واستطرد:

- الحقيقة التي ستهب العلم مرونة لا تقاس، تكفي لاستيعاب الأساطير وكل معتقدات الشعوب البدائية وتحدث انقلابًا لم يشهد له العالم مثيلًا..

إننا نقف الآن أمام الدليل الحي على وجود السحر.. صعدنا لحجرة المعيشة بعد دقائق، وجلسنا في حول مجموعة من المستندات القديمة..

قلت في حيرة:

- لم أفهم بعد.. ما السر في اطلاعي أنا بالذات على هذا؟

- أنت مسلم يا د. (رفعت)..

- نعم..

- وأنا كاثوليكي ود. (لوفارسكي) يهودي، وهذا سيجعل شهود المعجزة هم نماذج لثلاثة أديان..

ـ أية معجزة؟

- عودة دراكيولا..

* * *

٤ـ طقوس..

مد د. (ريتشارد) يده إلى الأوراق وفتح إحداها وشرع يقرأ:

- تقول المستندات إن مصاص الدماء يعود للعالم كل مائة عام لنشر الفساد والشر، ثم يموت على يد شخص لم يتلوث..

وهنا قال د. (لوفارسكي) عابثا بلحيته:

- إن لدينا شواهد تاريخية على ظهور مخلوقات لها صفات مصاص الدماء والعثور على جثث رقابها مثقوبة في الأعوام ١٧٥٩ و١٨٥٩، وبشكل أكثر تحديدًا في الليالي المقمرة التي يتوازى فيها المشتري مع المريخ، ويمكن القول

إنه كان يقتل في كل مرة.. ويعود لصورة المومياء التي نراها.

- وهل كان يعود من تلقاء نفسه؟

قال د. (لوفارسكي):

- كلا.. بل بمعونة بعض الأوغاد الذين يؤدون بعض الطقوس اللازمة للبعث.

وهنا بدأت أفهم.. كنا في العام ١٩٥٩.. أي أن هذا هو العام المنتظر السعيد.

وفتح د. (ماكس لوفارسكي) ورقة صفراء وشرع يقرأ:

- أول الطقوس هو أن يؤديها أشخاص بلغ منهم الشر كل مبلغ... أي نحن..!

قال د. (ريتشارد):

- إننا عبيد الفضول العلمي، وكلنا على استعداد لعمل أي شيء من أجل



إنه كان يقتل فى كل مرة .. ويعود لصورة المومياء التى نراها .

الحقيقة... إن العلم هو ما نحيا من أجله..

- ثاني الطقوس هو شرط القرن. أي أن تكون مائة عام قد مرت على مصرع الكونت..

- ثالث الطقوس هو شرط القمر. أي أن يكتمل البدر ويتوازى المشتري مع المريخ..

الشرط الثاني أو الثالث سيتحققان بعد أسبوع. ليلة الأربعاء..

الشرط الرابع هو شرط الوطواط.. يجب أن يوضع علي صدر الجثة مومياء وطواط وهذا ليس صعبًا.

الشرط الخامس هو شرط الدم.. بحيث أن يوضع دلو من الدم بجوار المومياء.

- دم بشري؟
- لم يحدد النص ذلك..
وهنا لاحظت شيئًا.. التمعت عيناي في فخر كأنني طفل فاز في لعبة المساكة، وصحت:
- لحظة من فضلك.. التاريخ يحكي أنه - في كل مائة عام - كان بعض الأوغاد يجدون التابوت ويمارسون نفس الطقوس، فكيف تأتي أن التابوت لم يزل في نفس المكان، والرسالة لم تزل حيث يتركها الخادم منذ خمسة قرون؟
احمر وجه د. (ريتشارد) فترة، ثم همس في استسلام:
- لقد فاتني التفكير في هذا بالفعل..
قال د. (لوفارسكي):

- لربما فكر من يقتل الكونت في كل مرة أن يترك الرسالة في موضعها للأجيال القادمة؟

- ولماذا يحرص من يقتل الكونت على إعادة جثته للتابوت في كل مرة؟ لماذا لا يدفنها في أي مكان؟ لماذا لا يمزقها او يحرقها؟ لم أعرف أن قتلة مصاصي الدماء منظمون إلى هذا الحد؟

ساد الصمت للحظات وأدركت - في فخر - أن الرجلين يكرهانني في جنون، لكن هذا هو العلم، وهما يعرفان هذا خيراً مني..

قال د. (ريتشارد) بعد تفكير:

- حسن يا د. (رفعت). إننا مصممان على التجربة، والتي لم يبق لها سوى

أسبوع، فإذا لم تقبل فعلى الأقل قل ذلك الآن حتى يتسنى لي أن أجد عالمًا أثق به من الجالية المسلمة في إنجلترا.. الوقت ضيق كما ترى..

من أنا حتى أرفض أمرًا كهذا؟ ستكون ليلة الأربعاء ليلة مثيرة بكل المقاييس...، هكذا قلت لنفسي.. كنت ساذجًا كما قلت لك...

- إذن فلنبدأ.. الوقت ضيق كما قلت أنت...

لم يكن هناك أي شيء. وكنت واثقًا من نفسي أنني بدأت أعد عبارات العزاء التي سأقولها لهما حين تشرق شمس يوم الخميس والمومياء لم تزل كما هي - مومياء – يا لها من لحظة!. لحظة يعرف

كل منهما انه أضاع عمره يطارد وهمًا..
يا للحسرة..
كان الأمر واضحًا في ذهني تمامًا..
هذه مومياء قام أحدهم بنشر أسنانها لتبدو كالأنياب وستظل كذلك، لا أرى الموضوع على أي ضوء آخر.
في الصباح جاء (جوناثان) صبي البقال بلفة صغيرة اتضح أنها خفاش ميت اصطاده من الكنيسة المهجورة المجاورة، وأخذ جنيهين كاد يطير بهما فرحًا..
وجلست أنا ود. (ريتشارد) نحنط الخفاش في الحديقة مستعملين الفورمالين.

- لنفرض أننا لم نستطع السيطرة على دراكيولا حين ينهض. فماذا نفعل

قال د. (لوفارسكي):

- إذا نهض، لقد كان مفزعًا في العصور الغابرة.. عصور الشمعدانات والعربات التي تجرها الخيول والكونتيسات... الخ، لكنه اليوم سيعود في عصر انشطار الذرة والكهرباء. لن يكون سوى مجرد حيوان تجارب طريف..

قال د. (ريتشارد):

- سنقوم بنقله إلى معمل مظلم في جلاسجو ونقيده هناك، ثم ندرس كل شيء... تركيب دمه... أنسجته... ضغط دمه... درجة حرارته، وإذا مات سنشرحه.. لربما أتى اليوم الذي تعقد له

فيه مؤتمرًا صحفيًا أو ننشر مذكراته في كتاب اسمه (عشت في تابوت) يحطم مبيعات السوق!

قلت:

- إن هذا المسخ محظوظ جدًا... لكن أتمني لو عدت للحياة بعد مائة عام لأرى حال السياسة والعلم والمجتمع والناس وقتها..

فاحت في المكان رائحة لا تطاق لأحشاء الخفاش اللعينة، واستمررنا في عملنا على مضض.

- اللعنة.. فهمت الآن لماذا لا يبعث مصاص دماء إلا كل مائة عام..

ثلاثة علماء يعملون في صبر من أجل إثبات وهم...

* * *

٥ - شيء ما..

جلست في حجرتي المريحة التي أعطانيها د. (ريتشارد) في بيته الريفي الجميل.. كنت قد غادرت الفندق من ثلاثة أيام، لكني تركت هنالك أمتعتي لسبب ما،

لم أدر ما هو..

شعور غامض في أعماقي جعلني أترك جزءًا من ذاتي خارج جدران هذا

البيت. أشعلت سيجارة وشرعت أفكر.. ما الذي جعلني أقحم نفسي في هذه القصة؟.. إنه ذلك الولع المجنون بالمجهول.. تلك اللذة الحريفة الكامنة في قصص جدتي عن الغولة والنداهة، وكنت أتساءل: كيف تبدو هذه المخلوقات؟!.. ولماذا!

اختار الفلوكلور الشعبي لها صورة الأنثي.

ثم كبرت وبدأت أذهب للسينما.. وشاهدت (لون شانى) - ذا الألف وجه - (وفنسنت برايس) يلعبان دور الكونت الغامض شارب الدماء.

لكم فتنتني شخصية (دراكيولا).. ولكم حيرتنى.. ولكم أفزعتني!

واليوم.. هأنا ذا قاب قوسين من حقيقة هذا الكابوس، بل إن - صدق أولا تصدق - مومياء هذا الكونت ترقد في بدروم البيت الذي أنا فيه الآن!.. بل إن موعد استيقاظها هو بعد ثلاثة أيام لا أكثر! ماذا سيقول أصدقاء طفولتي في (المنصورة) لو عرفوا ما أنا فيه الآن

الآن كل شيء معد.. دلو دم الخنزير.. الخفاش المحنط.. ورفقة اثنين من العلماء حادي المزاج لا يهمهما سوى العلم أيا كانت نتائجه الوبيلة.

أضأت الاباجورة فوجدت جوار السرير مجموعة كتب، وعلى السطح كانت رواية (برام ستوكر) الشهيرة (دراكيولا)، لابد

أن د. (ريتشارد) تعمد وضعها جوار سريري لجعلي أعيش في (الجو)..

أطلقت سبة في سري ثم فتحت الرواية وبدأت أحداثها تجرفني.. يا للخيال المروع العبقري المريض...! لكم أحسد مؤلفها.

كنت قد وصلت للجزء الذي يدخل فيه الكونت على ضيفه الغافل موثق العقود (جوناثان هاركر) وهو يحلق ذقنه.. وهنا يفكر الموثق: كيف لم أر هذا الرجل في مرآة الحلاقة؟ وتتصلب عينا الكونت على جرح في عنق موثق العقود نجم عن الحلاقة... و...



وهنا يفكر الموثق : كيف لم أر هذا الرجل فى مرآة الحلاقة ؟..

كنت قد وصلت لهذا الجزء حين دق الباب فأجفلت.. ثم عدت لعالم الواقع، فنهضت للباب وفتحته، كان القادم هو د. (ريتشارد)..

- هل نمت؟

- من الواضح أنني لم أفعل..

نظر إلى الرواية على الفراش.. وضحك:

- إذن أنت تستعد لضيفنا؟

ضيفنا؟.. قلت في حنق:

- تبًا لها من رواية،

- وماذا تعلمت منها؟

- تعلمت ألا أحلق ذقني أمام (دراكيولا) لئلا أجرح نفسي، وعندئذ..

- وماذا أيضًا؟

- تعلمت ألا أثق بالأشخاص الذين لا تنعكس صورتهم في المرآة!..

انفجر د. (ريتشارد) يضحك.. كان يرتدي الروب وتحته قميص وربطة عنق، وقد بدا غاية في الأناقة والوسامة، ثم أنه أشعل سيجارة - ولم يقدم لي واحدة كعادته - وجال بنظره في أرجاء الغرفة.

- لماذا لا تضع بعض الآيات القرآنية هنا وهناك؟

أشرت إلى الكومودينو بجوار الفراش، إلى المصحف الصغير الذي أعطتني

إياه المرحومة أمي قبل أول سفر لي بالخارج.

- ها هو ذا.. لكن بغرض القراءة وليس لحمايتي من مصاص دمائك..

هز رأسه مؤيدًا.. ونهض في تثاقل متجهًا إلى الباب مارًا أمام المرآة المزخرفة المعلقة.. لا!.. لابد أنني متوتر الأعصاب.. هل المرآة غير مصقولة أم أن الإضاءة غير كافية؟ أم أن هذا الرجل لا يعكس ظلًا في المرآة بالفعل؟!

التفت لي في اهتمام وسأل:

- ما سر هذا الهلع على وجهك؟!

هل أصارحه؟.. كلا.. كلا.

- لا شيء.. إنه مفعول روايتك لا أكثر.

فكر قليلًا ثم قال:

-(رفعت..) هناك شيء هام..

- ما هو؟

- شيء أريد عمله ولا أريد للدكتور (لوفارسكي) أن يعلم به، هل تعدني؟

- أعدك..

- إذن اتبعني إلى البدروم بعد عشر دقائق..

وألقى سيجارته وانصرف في تؤدة.

بمجرد أن خرج أغلقت الباب وهرعت للمرآة.. إن صورتي واضحة فبها، ولكن.. ما أكثر ألاعيب الضوء!. رب زاوية انكسار كاملة تحيل الماء إلى مرآة، لماذا لا تتحول المرآة - في زاوية ما وإضاءة ما - إلى سطح غير عاكس؟..

وحتى إذا لم تعكس المرآة صورته؟..
ما معنى ذلك؟.. أنا لا أؤمن بالأشباح..
وحتى إذا طبقنا منطق الخرافة نفسها
فلا توجد أي ضرورة لهذه الزيارة، ولم
يستتبعها شيء..

لماذا يريد د. (كامنجز) لقائي في
البدروم؟.. طبعًا ليس للعب الورق ولا
لمشاهدة مجموعة طوابعه.. وبالطبع ليس
لامتصاص دمي، لأني لا أؤمن بكل هذا
الكلام الفارغ..

ما الذي يريده من مومياء (دراكيولا)؟..
ما الشيء الذي لا يريد أن يعرفه د.
(لوفارسكي)؟!

على كل حال مضت العشر دقائق.

ارتديت الروب وخرجت من باب الغرفة قاصدًا البدروم.، ظلام الردهة وبقايا العشاء على المائدة لم ترفعها مسز (كامنجز) بعد.

باب غرفة د. (ريتشارد) يفتح في بطء..

- د . (رفعت)؟

- نعم.

لاحظت أنه يتكلم بصوت عال.. فخفضت صوتي في همس كالفحيح:

- والآن هيا..

- هيا ماذا؟

- البدروم..

- البدر.. هل أنت بكامل قواك العقلية؟!

ماذا يحدث؟.. عم يتحدث هذا المخبول؟.. لكن وجهه كان جادًا صارمًا لا

أثر للدعابة فيه.. كلماتي اصطدمت بحاجز صلب بارد فسقطت مهشمة عند قدمي.

- ألم تطلب ذلك مني؟
- دقيقة واحدة.. طلبت منك ماذا؟
- النزول للبدروم!..
- منذ عشرة دقائق في حجرتي!..

أعتقد أنه لا بد من اختصار هذه المحادثة التي لابد أنك أدركت فحواها، هو يعرف ويؤكد ويقسم أنه لم يأت لحجرتي أبدًا، وأنا واثق تمامًا أنه كان عندي لسبب يعلمه الله وحده، محادثة مملة كحوار الطرشان نتيجتها أن كلًا منا اعتقد أن الآخر كاذب أو معتوه..

- هل تعرف يا د. (رفعت)؟

قالها في غموض وهو يضيق حدقتي عينيه مستطردًا:

- يبدو أن كلينا على حق!

- الأمر واضح.. هناك من حاول استدراجك للبدروم.. لهذا زارك في صورتي.

- هل سنعود لهذا الهراء؟..

- قل لي.. ألم تلحظ شيئًا غير عادي في هذا الزائر؟..

فكرت لحظة ثم قلت بلا مبالاة:

- لا شيء سوى أنه.. لم يكن يترك انعكاسًا في المرآة!

* * *

٦ - مزيد من الألغاز..

هل لك في شريحة جامون يا د. (رفعت)؟

سألتني مسز (كامنجز) في رقة ونحن جلوس حول مائدة الافطار، هززت رأسي أن لا.. فصبت المزيد من القهوة في فنجاني قائلة إنني أبدو منهكًا..

- كانت ليلة شنيعة سيدتي، زارني أحدهم، و..

وهنا أخرستني نظرة شذراء من عين د. (ريتشارد) كي لا أسترسل في

كلامي، غريب هذا!.. في شمس الصباح كان ما حدث أمس يبدو ضبابيًا وسخيفًا..

إن ما حدث ليلًا هو دعابة لا أكثر، أو هو على أقصى افتراض هلوسة شاذة نتيجة لقراءتي لقصة (برام ستوكر) الشنيعة.

بعد الافطار دخلنا مكتب د. (ريتشارد) والتففنا حول صاحب الدار الذي أشعل سيجارة.. وقال مبتسمًا:

- أمس تلقي د. رفعت زيارة لطيفة..

وحكي قصة الأمس لد. (لوفارسكي) الذي أخذ يصغي وهو يرمقني بعينين حادتين كالصقر.. فما أن انتهت القصة

حتى ساد الصمت، بعد دقائق قال د (لوفارسكي) بصوت رتيب كالقضاة:

- أعتقد أن كل شيء يتوقف على د. (رفعت)..

سألته في دهشة:

- ماذا تعني؟

قال في ثقة

- لا غبار على قصة د. (ريتشارد). لكن قصتك تحتمل المناقشة!

غلى الدم في عروقي:

- هل تعني أنني كاذب؟

- لا يا صديقي.. بل أعني أنك واهم..

هززت رأسي.. الواقع أنني - أنا نفسي - لم أعد واثقًا من شيء.. كل ما رأيت كان ملموسًا وماديًا إلى حد

مرعب.. لكني لم أهلوس من قبل، لربما كانت كل الهلاوس مقنعة هكذا..

ثم.. تذكرت شيئًا.. يا لي من أحمق!..

- تعاليا معي إلى غرفتي..

وفي غرفتي كان الفراش بحالته، لأنني لا أرتب سريري ابدًا عند الاستيقاظ.

- تريان الآن ما أعنيه..

وأشرت إلى رواية (برام ستوكر) المفتوحة.. والمصحف الصغير على الكومودينو.. موضوعات حديثي مع زائر الليل..

قال د. (ريتشارد):

- هذا لا يعني شينا.. من الطبيعي أنك أقحمت في هلوستك بعض

الموجودات الحقيقية في غرفتك.

- وهذا؟

نظرا إلى ما أشير إليه.. الدليل الدامغ على سلامة عقلي.. هناك على مشمع الأرضية كان عقب سيجارة محترق، سيجارة من النوع الذي يدخنه د. (ريتشارد) ولا يدخنه أحد غيره..



نظر إلى ما أشير إليه .. الدليل الدامغ على سلامة عقلى .. هناك على مشمع الأرضية كان عقب سيجارة محترق ..

قال د. (لوفارسكي):

- شيء بسيط أيها الشاب!.. لقد قدم لك د. (ريتشارد) إحدى سجائره..

- إنه لم يقدم لي سيجارة في حياته!..

- اسمع يا صديقي.. إن الحياة مليئة بالتعقيدات ولا تحتمل أكثر.. لماذا تملأ الدنيا صراخًا على.. على عقب سيجارة؟

صرخت في غيظ.

- أنا أقول إنني واثق أن شخصًا - أو شيئًا - اقتحم حجرتي ليلًا ودعاني للنزول للبدروم، وهذا العقب هو الدليل على صدق كلامي..

ثم نظرت لـ د. (ريتشارد)، متوسلًا:

- د. (ريتشارد).. لماذا لا تقول إنك كنت تمزح وتريحنا من هذه السفسطة؟

- تحشم أيها الشاب!.. أنا لا أكذب..

- لكن التفسير العلمي الوحيد هو أنك تكذب.

- أنا لا أسمح.. وأطالبك بأن تكون أكثر لياقة مع رجل في سن أبيك..

واشتعلت الكلمات. وأظن أنني كنت على وشك ضربه أو هو على وشك طردي، لولا أن تدخل د. (لوفارسكي) بجسده البدين بيننا مهدئًا النفوس:

- يا سادة.. أرجوكما!.. لقد نسينا شيئًا.

توقفنا عن المناقشة، كي نعرف ما سيقوله هذا اليهودي:

- ما الذي كان على د. (رفعت) أن يفعله في البدروم؟

- لا أدري.

- ولا أنا..

- إذن ننزل البدروم ونلقي نظرة.

ونزلنا للبدروم.. التابوت الكئيب الممل ورائحة العطن.. لا يوجد شيء جديد أو يستحق الانتباه، لا شيء يدل على شيء.

يا لغرابة ما نحن بصدده.!

لقد بقي يومان على الموعد المشهود وما زال كل منا عند رأيه، لكن علامات الاستفهام تتكاثر حول كل شيء.

من سيضحك ضحكة الانتصار ليلة الأربعاء؟

* * *

٧ - زائر الليل..

في منتصف الليل صحوت على صوت زجاج يتحطم.. استغرقت دقيقة كي أفهم أين أنا، ومن أنا، وماذا أفعل في الفراش.. ثم عشر ثوان أخرى كي أثب من الفراش حافيًا - وبالبيجامة - إلى باب الغرفة.. ثم إلى الطابق الثاني حيث سمعت الصوت.

هذه غرفة مكتب د. (ريتشارد)، لا أحد هنالك لكن الستارة كانت تتموج في صمت في هواء الحجرة المظلمة مما دلنا أن اللوح المكسور هو هنا..

أشعلت النور فلمحت شظايا زجاج على الأرض.. وبالطبع - كما هي العادة معي - دست على شظيتين بقدمي الحافية فأطلقت سبة.. وجلست على الأرض كي أخرجها.

ثم لمحت عيناي...

هناك - خلف المكتب - كان شخص مختبئًا كي لا أراه.. الشخص الذي اقتحم النافذة الزجاجية بهذا العنف من أجل شيء لا أعرفه.. ولو جريت من الغرفة فقد يهاجمني: لذا تشاغلت

بمعالجة قدمي وأنا أسب بصوت مسموع، الدم يصفر في آذني والأدرينالين يرتفع في دمي وقبضتي تتوتر، ثم في لحظة واحدة وثبت فوق المكتب وألقيت نفسي على هذا المتلصص..

تلقيت لكمة في بطني جعلت الهواء يخرج من فمي.. إلا أني تحاملت ورفعت ركبتي لأركله أسفل بطنه.. سمعته يئن.. ولكن من هو؟

كان ملثمًا.. ولم أر سوى عينين باردتين كشتاء لندن، رماديتين كضبابها، وجهت لكمة قوية إلى أنفه خلف القناع حتى أنني شعرت بغضروف أنفه يكاد يتهشم.. ثم لكمة في صدره.

لم أكن رياضيًا في حياتي، ولم يكن الكاراتيه والجيدو والتايكوندو معروفين لجيلنا، إلا أن كل إنسان يمكنه أن يقاتل بشراسة، طالما وجد هدفًا قويًا.. وهل يوجد هدف أقوى من أن أمنع هذا المتعصب من قتلي؟

والتحمنا في عراك طويل.. كان الوغد قويًا وشرسًا لكني كنت حانقًا وخائفًا مما جعلني خصمًا مساويًا له تقريبًا.. وفجأة امتدت يده إلى شيء ما على المكتب، وانهالت فوق رأسي ضربة من جسم معدني ثقيل.. كلا..! لن أفقد وعيي..؟ تحاملت.. لكن الأرض هي التي خذلتني!..

لابد أن فترة فقداني الوعي لم تزد على خمس دقائق. وعلى الارض كانت أداة لتثقيب الورق ملقاة بجانبي هي التي حسمت المعركة السابقة..

كان الغثيان يقتلني لكني نهضت.. جريت مترنحًا للباب المفتوح، ونزلت السلالم جريًا إلى المكان الذي كنت أعرف أني سأجده فيه. البدروم..

نعم.. كان هناك في الظلام بجوار تابوت الكونت (دراكيولا) وقد أضاء الكشاف الكهربي ووضعه بجواره على الأرض، وكان قد قرب وجهه من الكونت، وهو يهمس بكلمات ما لم أتبينها.. كأنها صلاة وثنية غامضة أو شيء من هذا القبيل..

آه!.. ألن ينتهي هذا الجنون؟



وكان قد قرب وجهه من الكونت وهو يهمس بكلمات ما لم أتبينها ..

صرخت صرخة أفزعتني أنا نفسى.. ورفعت زجاجة ملقاة على الأرض ولوحت بها في الهواء كالهراوة ثم انقضضت على هذا المدعي.. ولولا أنه أجفل لهشمت الزجاجة جمجمته في ثوان.. وثب كالملسوع إلى الكشاف الكهربي فاطفأه.. ثم انهالت علي لكماته في الظلام، إن هذا الوغد يرى في الظلام كالوطاويط..

وفي هذه المرة لم أقاوم كثيراً.

ظللت فترة ألهث في الظلام ومذاق الدماء المالح يملأ فمي.. أعتقد أنني في حاجة لاستعادة لياقتي في المرة القادمة.

نور البدروم يضاء.. د. (ريتشارد) و(لوفارسكي) بثياب النوم وعيونهم منتفخة من أثر النعاس يحيطون بي. صحت في سخرية مرة:

- أهنئكم على نقاء ضمائركم..! إن الضجة التي أحدثتها كانت كفيلة بإيقاظ الموتى، وأنتم لم تصحوا إلا الآن..!

وشرعت أحكي ما حدث، وما أن سمع د. (ريتشارد) قصتي حتى امتقع وجهه ووثب كالقط إلى غرفة المكتب، وهنا جال خاطر مرعب في ذهني.. ماذا لو عاد ـ كعادته ـ من أعلى ليقول إنه لا يوجد لوح زجاج مكسور وأني كنت أهلوس؟

إلا أنه عاد بعد دقائق وقد بدا عليه الاهتمام وهو يحمل معه أداة لتثقيب

الأوراق تلك التي كادت تهشم رأسي منذ دقائق.. وقال:

- إنك كنت محظوظًا يا صديقي..

أشرت إلى الزجاجة المكسورة الملقاة على الأرض وقلت:

- والوغد كذلك محظوظ مثلي..

- د.(رفعت) إننا أناس متحضرون، وأري أن ما حدث لا ينبغي ان يمنعنا من ارتداء ثياب لائقة حتى تناقش الأمور في مظهر متمدن:

- سنلتقي في غرفة مكتبي بعد عشر دقائق؛

آه من هؤلاء الإنجليز!.. يريد مني حين أجد لصًا في داري أن أنهض من الفراش وأمشط شعري وأرتدي ثياب

السهرة ثم أذهب إليه وأنحني كجنتلمان قائلًا:

- سيدي.. إذا لم تغادر داري خلال دقيقة أعتقد أنني سأصل بصددكم إلى قرارات خطيرة ؛

آه.. تبًا. المهم أنني عدت لحجرتي وارتديت ثيابي. وتأملت وجهي في المرآة.. لم تكن هناك عاهات مستديمة والحمد لله، ولكن ماذا سيكون تفسير هذين السيدين لمغامرتي القصيرة الفاشلة؟

وفي غرفة المكتب حيث الستارة لم تتطاير.. سألت الرجلين،

- والان،. ما قولكما؟

قال د. (لوفارسكي) متحاشيًا النظر في عيني:

- إذا أردت رأيي لقلت إن هناك أحداثًا غامضة لا يجمع بينها سوى شيءٍ واحد.. في كل مرة إما أن نقابلك متجهًا للبدروم أو نائمًا فيه..

قال د، (ريتشارد):

- انني أتساءل عن قصتك القادمة التي ستبرر بها نزولك للبدروم ليلًا!..

صحت في غيظ وقد بدا لي الرجلان شديدي السماجة والجهل.

- وهل تظنان أنني أحب هذا البدروم العطن وتلك المومياء السخيفة؟.. هل أنا أكذب لأبرر عشقي الشديد للجلوس جوار التوابيت في الظلام؟

لم يستطع د. (ريتشارد) أن يمنع ابتسامة على شفتيه إثر كلامي.. ورفع يده محاولًا تهدئتي:

- أنا لم أتهم.. ولم أقل هذا.. ولكني قلت إن هناك محاولة ما لجعلك تنزل البدروم وحدك ليلًا.

- إن هذا لم يدر بخلدي قط، لكنه صحيح..

- ولنفرض هذا.. فما المفروض أن يحدث هناك؟

- هذا ما اجتمعنا للتفكر فبه..

- ولكن لماذا لا يكون زائر الليلة لصًا.. لصًا عاديًا..

نظر لي د. (لوفارسكي) نظرة ذات معنى.. وقال:

- اللصوص لا يجثمون جوار التوابيت ليتلوا صلاة غامضة.. أنت قلت هذا بنفسك هل تذكر؟..

أضاف د. (ريتشارد):

- واللصوص لا يحطمون الزجاج بهذه الرعونة، هذا اللص أحمق أو هو أراد أن تسمعه أنت..

- واللصوص لا يدخلون البيوت من الطابق الثاني ما دام عندهم نوافذ الطابق الأول.

تنحنح د. (ريتشارد) ونهض إلى الستارة وأزاحها.. ثم قال:

- هناك ما هو أغرب.. هل لاحظتم كسر الزجاج. إنه مجرد فتحة صغيرة لا تسمح أبدًا بمرور إنسان..

نظرت في عينيه.. وقلت:
- لكنها تسمع بمرور.
نعم.. تسمح بمرور وطواط..!
قال د. (لوفارسكي):
- المزيد من الالغاز..! هل تريدان رأيي؟.. أعتقد أن بعض الجماعات السرية أو عبدة الشيطان على علم بوجود المومياء لدينا.. وهم يحاولون سرقتها.
- لكن أحدًا لم يعلم ما نعلم نحن..
- طالما علمنا ما علمناه من المخطوطات فماذا يمنع أن يعلم آخرون نفس الشيء؟
- إن هذا يدعونا لمزيد من الحذر.. لم يبق سوى يوم واحد على كل حال..

فلندعه يمر على خير بأية طريقة..

ثم هز إصبعه في وجهي.. وقال محذرًا:

- لا مزيد من الزيارات الغامضة للبدروم لأن المرة القادمة لن تمر على خير.. أريد أن تعود لمصر قطعة واحدة دون ثقوب!

ونزل الرجلان السلم في حين تخلفت عنهما.. كنت أفكر.. ما دام اللص لم يدخل من النافذة فهو أحد المقيمين بالبيت.. وما دام قويًا فهو رجل.. وما دام ليس أنا فهو أحد العالمين.. وما دام رمادي العينين قوي البنية فهو ليس د. (لوفارسكي). إذن هو...

نعم.. إن هذا يتفق مع ما حدث بالأمس.. دائمًا هو د. (ريتشارد) في كل حادث غامض ثم يظهر ليؤكد لي أنني أهلوس، لكن.. ما الذي يخفيه هذا الرجل؟

إنه يداعبني دعابة عملية قاسية أو هو مخبول تمامًا وهو شيء لا استبعده.. إن من عاش حياته وسط هذا الهراء لابد أن يكون مخبولًا..

ولكن لماذا أنا بالذات؟.. لأنني أصغرهم سنًا وأكثرهم رعونة.. ولأنه لم يزل يحمل احتقار المستعمر لأهل البلد الذي استعمره.. لم تكن ثلاث سنوات قد مضت منذ حرب السويس.. فهل هو ذلك

الانجليزي المتعصب الحاقد حقًا؟.. لا أفهم.

على كل حال لم يبق سوى يوم واحد.. وليس في جعبتي سوى الحذر والانتظار.

دخلت حجرتي وأغلقت بابها، اتجهت للشباك وفتحته.. نظرت إلى أعلى.. إلى نافذة غرفة المكتب المكسورة.. خيل لي أن شيئًا ما يخرج ببطء من فتحة الزجاج.. ثم تبينت ما هو.. كان وطواطًا صغيرًا سرعان ما فرد أجنحته مرفرفًا ودار دورتين في الهواء ثم اختفى في الظلام..!

* * *

٨ - ليلة الأربعاء..

تم إعداد كل شيء.

وفي ذلك اليوم خرجت مع مسز (كامنجز) و(كاترين) في نزهة رائعة في الريف الإنجليزي وتحدثنا عن كل شيء فيما عدا المومياء الموجودة بالبدروم، وقد خشيت أن ينزلق لساني بشكل أو بآخر، لكنها كانت تعرف كل شيء فيما يبدو..

عدنا للبيت عصرًا فتناولنا وجبة لا بأس بها. ثم دعانا د. (ريتشارد) إلى

النوم لأننا سنقضي الليل ساهرين. وفي حجرتي غرقت في سبات عميق..

ترانسلفانيا.. الشيطان.. دراكيولا.. د. ريتشارد.. سالي.. يهوذا.. دم وخفاش وقمر.. وخفاش ودم... مائتا عام.. جنين الشر.. (دراكيولا) يدخل الغرفة.. جئت لأصطحبك.. كلا... ليس أنا.. دعني فرصة أخرى.. أنا لست عزرائيل.. أنا مجرد مصاص دماء بائس.. نظرة يهوذا.. ليتني كنت خفاشًا يغرد في الصباح.. كلا.. الخفاش لا يغرد.. كانت فلاحة ذاهبة للحقل في قريتي.. حين.. حين ماذا.. لا أذكر.. لا تقترب مني..

وللحظة لم أعرف أين أنا.. هل ظلام الغرفة حولي هو جزء من الحلم؟ أم أنني

أنا نفسي حلم.و.... لقد غابت الشمس وفد جاء الليل، ولكن لماذا لم يوقظني أحد؟..

وهنا أدركت ما أيقظني. إنه صوت خطوات غريبة تمشي في الردهة خارج الحجرة.. ثمة شيء مريب في هذه الخطوات.. إنها ليست خطوات إنسان يمر عرضًا، بل هي خطوات واثقة متأنية تهدف إلى أن أسمعها أنا!..

بحذر مددت يدي للأباجورة بجوار السرير وفككت سلكها واتخذت منها أداة صالحة للضرب، وببطء اتجهت للباب. وهناك لشدة ذهولي - تجددت الخطوات - وتجمد الدم في عروقي..

صاحب الخطوات يقف الآن خلف الباب مباشرة!!

أهو (ريتشارد)؟ أم (لوفارسكي)؟ ولكن لم هذا التلصص؟ مددت يدي إلى المقبض وفتحت الباب. وعلى ضوء الردهة الخافت وجدت خيالًا مألوفًا..

- د. (رفعت).. لقد حدث شيء.

- (كاترين)؟ ماذا أتي بك هنا.. وماذا يحدث؟ كانت شاحبة ترتجف، وعلى عينيها الزرقاوين الجميلتين غشاوة متجمدة من الدموع لم تنحدر بعد..

- لا أحد هنالك..

- لا أفهم..



- د . (رفعت) .. لقد حدث شيء .

- (كاترين) ؟ ماذا أتى بك هنا .. وماذا يحدث ؟..

- لا أحد هنالك.. كل غرفهم خالية، مامي ودادي ود. (لوفارسكي).. كل الغرف خالية ؛

- كلهم؟.. وكم الساعة الآن؟

- الحادية عشرة مساء.

- إذن بقيت ساعة على ميعاد نهوض المسخ.. لكن أين ذهبوا ؟ هل رحلوا ؟

هل اختبأوا في مكان ما؟. ولم تركوني أنا وكاترين!

- أنا خائفة يا د. رفعت.. لقد نمت نومًا عميقًا وحين نهضت لم أجد أحدًا ..

كانت ترتجف كالورقة.. فمددت ذراعي وطوقتها.. تحرك شيء في قلبي، للمرة

الأولى، فطنت إلى أنني عشت خمسة وثلاثين عامًا من عمري وحيدًا.. يا له من شعور غريب أن تكون مسئولًا عن إنسان ما. وأن يحتاج إليك إلى درجة البكاء.. أخذت بيدها ونزلنا إلى البدروم..

كل شيء كما هو... والتابوت المشئوم في مكانه.. ومومياء الخفاش ودلو دم الخنزير... قلت لها:

- أنت تعرفين ما كان مفروضًا أن يتم هذه الليلة؟..

هزت رأسها أن نعم..

- وتعرفين أن الموعد بقيت عليه ساعة؟

- نعم.

- هل بحثت عن الآخرين في البيت جيدًا؟

- وفي الحديقة... وفي البدروم... لا أحد... لقد تركونا...

أشعلت سيجارة وجلست على حافة التابوت مفكرًا.

- هل نطلب الشرطة بالتليفون؟

- ليس لدينا واحد. أقرب تليفون على بعد نصف ساعة

- رائع

وهنا ساد الظلام التام البدروم.. لقد انقطع التيار الكهربائي ويا له من وقت لانقطاعه..

أشعلت شمعة كانت ملقاة على الأرض.. ظلان ساقطان على الحائط كأن عملاقين يراقبان ما نفعله ونقوله..

قلت وأنا أنفث دخان السيجارة:

- هل تعلمين يا صغيرتي؟ يخيل لي أن كل الخطوط تتلاقى في نقطة واحدة..

إرغامنا - أنا وأنت - على أن نكون المسئولين الوحيدين عن عودة هذا الشيطان.. هل نحن أصلح الناس لذلك؟ هل يرى الشيطان فينا من الشر الخفي ما يؤهلنا لذلك ببراعة؟

- لقد صرنا مجبرين.

هتفت كاترين في حنق:

- ولكن لماذا نحن مجبرون؟ نستطيع أن نغادر هذا البيت الرهيب وبعد نصف ساعة نصل للعمران.. الدفء، الأمان.

صرخت فيها:

- كلا.. لو فعلنا هذا لظللنا للأبد نحترق بنيران الفضول الذي لا يرتوي، ولظللنا

نلعن جبننا وتتساءل سؤالًا لا إجابة عليه أبدًا:

هل كان (دراكيولا) سينهض؟

إننا ظاهريًا أحرار لكننا في الواقع مقيدون بأصفاد متينة من الفضول العلمي..

نحن لا نستطيع إلا أن نستمر.. وسنستمر..

- ولكن.

- لا لكن.. لو ضيعنا الفرصة فلن تعود قبل مائة عام نكون نحن فيها قد شبعنا موتًا.. نموت دون أن نعرف.

كانت صغيرة السن ولم تفهم كل كلامي، لكنها لم تكن تستطيع أن تتصرف وحدها.. إن من دبر هذا الموقف

لهو شيطان ذو عقلية جهنمية يعرف تمامًا أن من سيتعرض لهذا الاختبار هو لابد مستمر فيه..

- وأين الاخرون

- لا أدري.. ولا وقت الآن للإجابة عن هذا السؤال.. المهم هو أن نعد هذا المكان لاستقبال الكونت.

بقيت عشر دقائق على منتصف الليل. وأحضرت دلو دم الخنزير وقربته من التابوت، ووضعت الخفاش المحنط على صدر المومياء.. ثم أطفأت الشمعة حتى لا تضايق سيد الديجور عند نهوضه.

بعد سبع دقائق يتعامد المشتري على المريخ، وينكشف وجه القمر من وراء الغمام.. وبعد سبع دقائق يعرف العالم

إلى الأبد ما إذا كان السحر خرافة أم لا.. وما إذا كان القدماء واهمين أم لا.

أما انا فكنت أردد كالمجنون بالعربية التي لا تفهمها:

- لن ينهض هذا الشيء لن ينهض.. أنا واثق من هذا وإلا غدونا في موقف لا نحسد عليه. بقيت أربع دقائق.

* * *

٩ - المفاجأة..

الساعة الآن الثانية عشرة والنصف..

لم يحدث شيء. برغم الظلام الدامس، أرى حدود الجسد المسجى في التابوت، وعيني كاترين اللامعتين، وأشم رائحة الفورمالين. وأسمع دقات قلبي.... لم يتغير شيء..

كان كل هذا وهمًا..

أشعلت الشمعة في تؤدة فأضاءت المكان إلى حد ما.. وقد بدا لي الكونت مبتذلًا وسخيفًا إلى حد لا يوصف.. نفس الوجه والشعر المتآكل.. و... و...

- انتهى الآمر..

قلت لكاترين لكنها لم ترد، نظرة غريبة شاردة في وجهها.. قلد حطمتها هذه التجربة، لكن لم يكن لي مفر. المهم الآن هو معرفة أين ذهب الاغبياء الآخرون..

- قد يكونون خرجوا لغرض ما.. أو هم مختبئون في دعابة سمجة، أو..

وأشعلت سيجارة، غريبة رائحة الكبريت هذه.. كنت أحمل قداحة، لهذا اندهشت للرائحة، د. (ريتشارد كامنجز) الأحمق الذي أفني حياته في ألعاب صبيانية، وذلك اليهودي البدين، وانا الذي سأرجع للقاهرة محملا بذكريات باسمة لا أكثر.. رائحة الكبريت.

الآن أستطع القول إن العلم هو العلم.. وكل ما عداه هو خزعبلات، ولكن لماذا تنظرين إلى يا(كاترين) هذه النظرة الوالهة.. كنت ما أزال وسيمًا محتفظًا بشعري، لكني لم أكن جذابًا لهذه الدرجة، خاصة لفتاة مراهقة.

- كاترين.. هيا نصعد.

لم ترد، وفجأة انفرجت تضحك في هستيريا.. تضحك، وتضحك في الظلام.. لقد جنت المسكينة!.. ثم نهضت، وهي تترنح إلى.. إلى دلو الدم ومدت يدها فيه وأخرجت أصبعها السبابة ملوثًا، و... لعقته في تلذذ.

- كاترين، أيتها المجنونة!..

التفتت إلى بشفتيها الحمراوين وهمست في صوت بارد:

- أتت لم تفهم بعد أيها الغبي.. لم تفهم.

ما أغرب هذا الذي تفعله، لقد جنت تمامًا.. و. التابوت ظل في مكانه كل هذه القرون ممددًا به الكونت والصندوق

العاجي على صدره.. لهذا بدت لي قصة د. (لوفارسكي) غير منطقية ومضللة، لأنه لا يمكن أن يقتل في كل مرة ويعيدون تسجيته في التابوت بنفس الوضع..

- لن تفهم أيها الأحمق.

أسنانها تلتمع في الظلام، وهنا فهمت كل شيء.. لم يحدث أبدًا أن نهض (دراكيولا) من تابوته، كانت الطقوس تتم بجوار تابوته في كل مائة عام، من ثم تنتقل روحه لتحل في أحد ممارسي الطقوس، يصير هو (دراكيولا) الجديد.. في حالتنا هذه كنت أنا و(كاترين) المختارين لهذا الغرض؛ لهذا استبعد الأخرين بصورة ما.. والآن (كاترين) - بعد منتصف الليل - تغيرت كثيرًا جدًا..

(كاترين) شربت الدماء وتلتمع اسنانها الحادة في الظلام وتصدر رائحة الكبريت اللعينة..

وأنا حبيس معه، في البدروم!..

لقد فهمت كل شيء متأخرًا جدًا..

- د. رفعت، تعال وقبلني..

صوت مغر قادم من عالم بعيد، إذن هذا هو كل شيء.

- تعال..

ولهذا لم أتحول أنا أيضًا، لأنه لابد لمصاص الدماء الوليد من وجبة عشاء.. وبماذا يتعشى إذا غدوت أنا أيضًا مصاص دماء؟!

وقبل أن أفهم أنا نفسي ما حدث، أطلقت ساقي للريح، جريت كما لم أجر

في حياتي، خرجت من القبو. الردهة.. مدخل البيت.. الظلام الدامس جعلني أصطدم مئات المرات بأشياء مجهولة، قلبي كاد يثب من حلقي.. الحديقة وضوء القمر يغمرها..

وبدأت أركض.. أركض.. أركض.. ومن بعيد لمحت أضواء العمران ورأيت أناسًا عاديين..

* * *

١٠ - الخاتمة..

خلال أربع وعشرين ساعة كنت قد عدت لبيتي السعيد في (الدقي) بالقاهرة، قضيت أيامًا عديدة أتخيل (كاترين) تهيم في الفلاة المحيطة ببيتهم تبحث عن عابري السبيل وتخيلتها تموت بوتد خشبي في صدرها..

بعد شهور تشجعت وأرسلت خطابًا إلى د. (ريتشارد) - أو إلى عنوانه على الأقل - فلم يصلني أي رد..

أرسلت ثلاثة خطابات أخرى، إلى أن وصلني خطاب من مالك البيت الجديد يقول لي إن د. (ريتشارد) لم يعد يعيش هناك، وأنه ارتحل إلى أستراليا مع عائلته، ولا يعرف عنوانه هناك..

كم من ليلة سوداء قضيتها أستعيد ما حدث وأحلله. هل كنت واهمًا؟ هل كان هذا حلمًا؟ أم كان هذا حقيقة تتلخص ببساطة في أن الفتاة قد انهارت أعصابها بفعل التجربة الجهنمية؟ أم كان هذا واقعًا عشته حين حبست وحدي في البدروم مع مصاصة دماء؟..

لا أدري.. ولن أدري أبدا.. هل قتلت (كاترين) بيد إنسان لم يتلوث - إنسان مثل أبيها - وهرب بعدها إلى أستراليا؟

أم أنها قتلت ذويها في تلك الليلة وجاءت غرفتي تولول وتبكي أم أن الأمر كله دعابة عملية قاسية أجادوا حبكها،.؟

أسئلة كثيرة بلا إجابة، ولا أرجو لها إجابة.. كل ما أعرفه أنني لن أحضر أبدًا

أي مؤتمر عن أمراض الدم.. ولن أذهب أبدًا إلى (يوركشاير) أو (أستراليا).. وأبدًا لن أشاهد فيلمًا لدراكيولا!..

- شعرات عديدة شابت في رأسي وأنا أنتظر أن يصلني انتقام الكونت (دراكيولا) إلى بيتي في الدقي خاصة وأنا - على ما أظن - آخر من يعرف حقيقته، وحزم ثوم علقتها خلف الشبابيك والأبواب، وأوان فضية، وآيات قرآنية.. لكن لم يحدث شيء والحمد لله إما لأن الله ستر، أو لأني كنت واهمًا في مخاوفي..

... وبعد سنتين من هذه الاحداث، قابلت شيطانًا من نوع آخر في مكان

آخر أنساني ما حدث تمامًا.. لكن هذه قصة أخرى...

د. رفعت إسماعيل
القاهرة - يناير ١٩٩٢

* * *

انتهى الجزء الأول (بحمد الله)

مقدمة..



روايات مصرية للجيب
ماوراء الطبيعة
الجزء الثانى
أسطورة الرجل الذئب
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

مرة أخرى أعرفكم على نفسي: الدكتور رفعت إسماعيل أستاذ أمراض الدم سابقًا بجامعة (...) وعدد لا بأس به من جامعات أوروبا وأمريكا، السن يناهز السبعين.. عزب، لأن حياتي الصاخبة لم تدع لي الفرصة أبدًا كي أكون كالآخرين..

لقد عرفت أشياء كثيرة.. فتحت تابوت الكونت (دراكيولا).. صارعت المذءوب في رومانيا.. بحثت عن وحش (لوخ نس) في اسكتلندا، قابلت رجل الثلوج الرهيب في التبت، ولبيت نداء النداهة في غيطان الذرة المظلمة.. وعرفت (الزومبي) في جامايكا.

كل هذا سأحكيه لكم بالتفصيل في هذه السلسلة.. لكني - مرة أخرى - أرجو من ضعاف الأعصاب ومرهفي الحس أن يمتنعوا عن القراءة، ويذلك يوفرون على أنفسهم ساعات من التوتر والهلع وخشية الظلام..

اليوم أحكي لكم قصتي مع أسطورة الرجل الذئب..

* * *

١ - بلد الأساطير..

نظر (إستبان) إلى ذبالة الشمعة المحترقة وإلى وجوه الجالسين حوله ثم همس:

- يا رفاق.. إن المذءوب هو أحد الجالسين على هذه المائدة!..

* * *

قبل أن نصل إلى هذا الجزء، دعونا نعود بضع أيام إلى الوراء، إلى زيارتي لرومانيا للمرة الأولى في حياتي، كنت في السابعة والثلاثين من عمري، وقد مضى عامان على مغامرتي الرهيبة مع الكونت (دراكيولا).. وكنت أعتقد ـ واهمًا كدأبي - أن متاعبي قد انتهت للأبد وأن الوقت قد حان كي أتزوج وأكون أسرة صغيرة

وأفتتح عيادة نظيفة بمجرد عودتي من هذه المهمة العلمية..

في إحدى جامعات كلوج قابلت الصحفي الروماني (جوستاف فيكولسكو).. وهو شاب شديد الذكاء يتمتع بروح دعابة قوية، ويجيد الإنجليزية كأهلها.. ومتبحر في الأدب والعلوم الإنسانية، وقد اعتبر نفسه مرشدًا لي في كل خطواتي، وعلمني الكثير عن رومانيا البلد الذي كنت أعرف عنه أقل القليل أو لا شيء على الاطلاق..

- ما هي الديانة هنا؟..

- إن غالبية السكان هم روم أرثوذكس..

- والشيوعية؟

ابتسم في تحفظ.. ثم همس وهو ينظر نظرة ذات معنى:

- يا رفيق.. إن الشيوعية لن تغير رومانيا.. إن رومانيا نسيج وحدها في أوروبا وهي لن تتبدل أبدًا.

رومانيا - كما قال لي - هي كلمة تعني أرض روما.. لأن القائد الروماني العظيم (ترايانو) قد فتحها وطرد البربر منها في موقعة (داتشيا) سنة ١٠٦ ميلادية.. ومنذ ذلك الحين صارت ولاية رومانية.

ثم غزاها القوط، ومن بعدهم السلاف، في القرن السادس الميلادي.

- أعتقد أن السلاف هم من أعطاها طابعها المميز؟

- إلى حد ما، والأهم هو أنهم قسموها إلى منطقتين: (ترانسلفانيا) و(والاشيا)..

- ترا.. ترانسلفانيا؟. حيث قصر الكونت..
- (دراكيولا)!.. نعم!.. إنها بلد خالد بالأساطير.. وأهم معالمه السياحية هو قصر الكونت (دراكيولا)، يجب أن نزوره معًا.. فهو مكان مثير للخيال إلى أقصى حد!

يا لك من أحمق؛.. ماذا تعرف أنت عن هذا القصر وعن تابوت الكونت وعن خادمه.. وعن.. وعن؟

- بل إن (ترانسلفانيا) هي أيضا مكان قلعة (فرانكنشتاين) كما وصفتها مدام (ماري شيللي)!
- يا له من بلد جميل!

- المهم.. كنت أقول لك إن الأتراك غزوا رومانيا.. ودارت معركة كبيرة بينهم وبين (ستيفانو) الأكبر في سهول راكوفا.. ثم تنازلت تركيا - الرجل المريض - عن أجزاء من البلاد للنمسا في صلح (باساروفيتش)..

- ومتى إذن صرتم أحرارًا؟.

- حدث هذا في عام ١٨٥٦.. وانتخب للحكم الأمير (ألكسندر كوز) بعد الحرب العالمية الأولي ضممنا للبلاد (بوكوفنيا) من روسيا.. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية.. استولى الجنرال (أنطونسكو) على الحكم لصالح النازي، وكان من جراء هذا أننا فقدنا (بوكوفنيا) مرة أخرى هي وأجزاء من (ترانسلفانيا) عادت للمجر..

بعد الحرب صرنا دولة شيوعية تابعة للاتحاد السوفييتي،

(كان هذا الكلام في عام ١٩٦١ ولم يكن أحدنا يتخيل ما سيحدث لرومانيا - وللشيوعية كلها - بعد ثلاثين عامًا).

قلت له:

- ولماذا تحبون الشيوعية؟

- مكره أخاك لا بطل!.. إن موسكو لا تترك لأحد فرصة الاختيار، أضف إلى هذا أننا كنا نريد أي تغيير بعد مظالم العهد البائد..

- هلا أعطيتني سيجارتك أشعل بها سيجارتي؟

قدمت له سيجارة فأخذها.. وهتف:

- أرأيت؟.. قبل سنة ١٩٤٧ كانت هذه جريمة يعاقب عليها كلانا بالسجن!

- أية جريمة؟

- إشعال سيجارة من سيجارة!.. كانت قوانين الاحتكار تحتم على المواطن استعمال عود ثقاب لهذا الغرض كي تروج تجارة الثقاب[1]!

أخذت أضحك.. فلم أتخيل من قبل هذه العبقرية في تقييد الحرية الشخصية للإنسان، يا للجهل البشري!

قال جوستاف:

- سترى الكثير من الأعاجيب في رومانيا.. عليك الآن أن تذهب لفندقك كي تستريح.. وسأراك غدًا..

* * *

كانت جولة رائعة استغرقت أسبوعين، زرنا فيها جامعات (كلوج) وكنائس (بوخارست) العتيقة.. ودخلنا حانات (ماميا) على البحر الأسود، حيث روى لنا البحارة الأشداء قصصًا مثيرة.. وزرنا ميناء (كونستاتا) أهم موانئ رومانيا، لكن ما أثر في أشد تأثير كان زيارتي لـ(ترانسلفانيا)..

- (ترانسلفانيا)هي حوض منخفض في غرب البلاد تحده سلسلة جبال الألب الترانسلفانية، وإلى الشمال تجد مراكز صناعة الصلب في رومانيا.. ثم منطقة (الكربات)..

- هذا الاسم مألوف لي..
- (الكربات) هي منطقة رعوية.. جبال متوسطة الارتفاع تكسوها الحشائش، وفي الجنوب يجري نهر الدانوب..
- الأزرق،
- لا يوجد دانوب أحمر فيما أظن!..
وفي تلك الليلة زرنا قصر الكونت (دراكيولا) العتيق المتهدم، وكنت أذكر تفاصيله من الصور الفوتوغرافية في المرة السابقة، لم أتمالك أن أرتجف وأنا أتخيل د. (ريتشارد) و(لوفارسكي) يتسللان ليلًا لهذا القصر المنهدم كي يبحثا عن مومياء (دراكيولا)، وتذكرت رعب أهل القرية من المرور جواره..

إن هذا المكان ينبض بروح ما، لا يمكن وصفها.

قال لي (جوستاف):

- إن التراث الشعبي في رومانيا مليء بقصص الرعب، والأمهات هنا يخفن أطفالهن بحكايات مصاصي الدماء والمذوبين و(نوسفراتو)2

- ولماذا في رومانيا بالذات؟

- إما أن هذا يعود لخصوبة الخيال المحلي.. وإما أن هذه المسوخ موجودة في رومانيا بالفعل!..

* * *

٢ - العاصفة..

انطلقت سيارة (جوستاف) في الطريق الوعر المتشعب والمطر ينهمر بغزارة على زجاج النافذة في حين كان بخار الماء يتكاثف من أشداقنا على باطن الزجاج الدافئ.. فكنت أمسحه من أمامه بمنديلي من حين لآخر..

ومن بعيد - عبر الغابات الكثيفة المظلمة - كان لسان. من البرق يشق السماء من حين لآخر ليضيء الموجودات بلون أزرق بارد قاس ثم يختفي.. وبعد ثوان يدوي هزيم الرعد كأنما نجوم السماء يصطدم بعضها البعض..

- إنها الكريفات...

- الكريفات؟..

- إنها ريح شتوية عاتية تجتاح هذه المناطق.. وتحدث كارثة في المزروعات.. إنها وبال على الفلاحين

- يا له من فأل سيئ!..

- لا تبتئس يا رفيق.. أنت لم تر سوى رومانيا الباسمة، وقد حان الوقت كي تراها حين تكشر عن أنيابها!..

كنا نجتاز دلتا الدانوب في جنوب البلاد، وكانت الطيور كلها قد فرت قبل العاصفة، ولم يبق في الغابات المترامية إلا بعض الذئاب تبحث عن مأوى..

بدأ الجليد يتساقط رقيقًا ناعمًا لكنه فعال، في ثوان تكتسي الغابات بلون أبيض جميل، وكنت لم أر الجليد في حياتي.. وقد

خيل لي أنني أحلم.. فجأة يتحول المشهد إلى مسرح لقصة خرافية ما.. نعم.. لابد أن ينشط الخيال البشري في هذه الأصقاع.. لابد.

- رائع!

- هل تعني أنك لم تر جليدًا قبل اليوم؟

- نعم.

- ألم تقل إنك زرت انجلترا وفرنسا مرارًا؟

- بلى.. كان ذلك دائمًا في جو صحو للأسف

انفجر يضحك.. ثم اشعل سيجارة.. وهتف:

- إن دلتا الدانوب مليئة بالبجع والبلشون.. والدببة.. والفهود!

- فهود؟
- طبعًا.. أنت لم تر رومانيا بعد يا صديقي.. ويبدو أنك سترى منها الكثير من الآن فصاعدًا..
- ماذا تعني
- أعني أننا لن نستطيع الاستمرار في هذا الجو دون جنازير على العجلات.. يجب أن نتوقف!..
شرع (جوستاف) يتفحص خريطة الطريق.. ثم تمتم:
- أقرب مدينة منا هي (تورسفرين) لكنها على مسافة لا بأس بها، إلا أن هناك قرية صغيرة اسمها (كرايوفسكا) على بعد عشر دقائق.. أعتقد أنها أملنا الوحيد..

المهم هو أن نتحرك سريعًا قبل أن يتعذر ذلك..

وافقته على كلامه لأن دمائي الحارة القادمة من وادي النيل كانت قد بدأت تتجمد في عروقي، كنت أرتدي بول أوفرين ومعطفًا وتحت بنطلوني ذلك السروال القطني السميك الذي أهدته إلي المرحومة أمي حين ذهبت للإسكندرية أول مرة في حياتي، لكني برغم نلك كنت أرتجف.. وبدأ أنفي يسيل.. وأدركت أنني في حالة سيئة.. سيئة..

أعاد (جوستاف) الخريطة إلى تابلوه العربة، ثم أدار المحرك عدة مرات.. احتبس فيها نفسي لا أريد التفكير فيما سيحدث إذا رفضت السيارة التحرك.. ثم

انطلقت السيارة، ومضينا صامتين لا شيء حولنا سوى الأشجار المغطاة بالثلج تلتمع في كشافات السيارة.. ومن بعيد كان ذئب أو اثنان يجريان من طريق العربة.

- (جوستاف)؟
- هم م م؟
- ماذا عن قضمة الصقيع؟!

وقضمة الصقيع - إن كنت لا تعرف - هو نوع من الغنغرينا يصيب الأطراف في البرد الشديد ويؤدي لبترها، قال لي ما معناه:

- فال الله ولا فالك ؛
- أنا لا أمزح.. أنا لا أشعر بأصابع قدمي!..

- على كل حال ليس الطقس بهذا السوء.. لسنا في (سيبيريا) فلا تتصرف كالأطفال..

ظللت صامتًا وأنا ألعنه في سري، وألعن دلتا الدانوب، وهذه الكر.. الكرفات أو أيًا كان اسمها، وشرعت أتخيل نفسي عائدًا للقاهرة دون قدمين لأتسول جوار مسجد الحسين، أو أتخيل نفسي ضحية لذئاب رومانيا الشهباء التي لا تمزح.. هل سيكرمون ذكراي في كلية الطب ويسمون دورة المياه بها على اسمي؟.. دورة مياه الشهيد (رفعت إسماعيل)..

في ذلك الوقت لم أكن أعرف أنني سأعيش ثلاثين عامًا أخرى سليمًا معافى، واليوم أتذكر، في كل مآزق حياتي - وما

أكثرها - كنت في كل مرة أعتقد أنها الأخيرة، لهذا لم أستمتع ولم أتعلم..

حين تدخل أنت بيت الأشباح في مدينة الملاهي أو فيلم رعب تكون على علم تام بانك - مهما رأيت - ستعود إلى بيتك سالمًا بعد هذا الفزع لهذا تعيش التجربة بأكملها، أما أنا فلم أكن أعرف..

والدرس الذي تعلمته - بعد سنوات طويلة - هو أن افتراض في كل مأزق أنني سأخرج منه سالمًا من ثم أحتفظ بوضوح وترتيب فكري، إن الهلع لا يجدي.. والموت هو ميعاد مكتوب لن يغيره حذري ولا رعبي، فإذا جاء.. فلأمت كرجل مبتسمًا واثقًا..

لكني لم أكن أفهم هذا وقتها!..

ومن بعيد لاحت أضواء القرية.

كانت الساعة العاشرة مساءً.. والشوارع مغطاة بالثلج، والظلام شبه تام فيما عدا بعض الأضواء خلف النوافذ المغلقة..

وارتجفت حين تخيلت الأسرة الملتفة حول المدفأة.. والطعام..

- الآن علينا أن نجد خانًا..

وأمام لافتة خشبية يضيئها مصباح ترجل (جوستاف) من العربة.. ثم قرع الباب بقبضة نحاسية معلقة جواره.. وصاح باللغة الرومانية بشيء ما، فرد عليه من الداخل صوت فظ يقول شيئًا آخر، حين تسمع لغة لا تفهمها يخيل إليك أن الكلمات تجري بين شفاه أصحابها

بسرعة لا يمكن متابعتها، (جوستاف) يصرخ والصوت يصرخ.. ماذا هناك؟



قرع الباب بقبضة نحاسية معلقة جواره .. وصاح باللغة الرومانية
بشيء ما ..

عاد إلي وهو يسب ويلعن - بالرومانية - بألفاظ أعتقد أنها مشينة للغاية، ثم فتح باب السيارة وجلس جواري.

- الخنزير لا يريد أن يفتح لنا..

- ولمه؟

- لا أدري.. قال إنني أستطيع أن أشكوه لمكتب الفنادق أو للحزب نفسه لكنه لن يفتح..

- ربما يظننا لصوصًا؟

- كلا إن رعاة الدانوب ودودون جدًا.. ولكن هذا الرجل.. لا أفهم.. وأدار محرك السيارة، وعدنا نجوب شوارع القرية المكسوة بالثلج صامتين.. بعد دقائق سألته:

- (جوستاف)؟

- نعم..
- هل اللية مناسبة دينية عندكم؟
- لا أعتقد.. ولماذا؟
- لا يوجد بيت في هذه القرية إلا وغرس صليبًا حديديًا أمام بابه!.. ألم تلحظ هذا؟!!

*   *   *

٣ ـ الكنيسة..

وصلنا للكنيسة العتيقة في القرية. آخر أمل لنا في المبيت.. نزل (جوستاف) من

العربة واتجه نحو باب الكنيسة الحديدي الصدئ وصفق بكفيه.. ولم يفته أن يشير لصليب حديدي مغروس في الجليد أمام الباب.. ونظر إلي نظرة معناها: أنت على حق فيما لاحظت..

بعد دقائق تحرك ضوء مصباح، وانفتح الباب الصدئ في حذر عن وجه مليء بالتجاعيد، كان هذا هو القسيس.. لحيته البيضاء ونظاراته الطبية السميكة ذكرتاني بالقساوسة الروم الأرثوذكس الذين عرفتهم في الاسكندرية، تحدث معه (جوستاف) بكلمات مقتضبة فهز رأسه استنكارًا ودعانا للدخول..

أغلقت خلفي باب السيارة ووثبت إلى الداخل وأنا أرتجف بردًا. صعدنا سلالم

متآكلة إلى غرفة واسعة رحبة.. وكانت هناك.. مدفأة! اللهب الأحمر العزيز يتراقص مرحبًا بنا.. وكانت هناك سيدة عجوز جالسة تحيك التريكو جوار المدفأة.. قدمها لنا الأب بكلمات لم أفهمها.

فقال (جوستاف):

- الآنسة شقيقة الأب (أنطونيسكو)..

وكانت هناك بعض كتب الصلاة على مائدة خشبية عتيقة، وشمعدانان.. وعدة أيقونات، كانت غرفة قديمة لكنها نظيفة مريحة و.. دافئة!

جلسنا أمام النار شاعرين أن اللهب ينفذ عبر عظامنا ليذيب النخاع بداخلها!.. أما الأب (أنطونيسكو) فنهض إلى زجاجة صغيرة صب لنا منها شيئًا في قدحين من

الخزف.. وقدمه (لجوستاف) ولي.. نظرت إلى (جوستاف) في تساؤل فقال:

- روم ساخن ليجري الدم في عروقك..

اعتذرت له وناولته الكأس ليشربها بدلًا مني في حين شرح هو الأمر للأب:

- مسلم..

قالها بالرومانية كما ننطقها نحن بالعربية.. فنظر إلي الأب في مودة:

- أها!.. مسلم؟

ودارت محادثة قصيرة أدركت مفادها بالطبع.. من أين أتيت أنا وكيف؟ وماذا أفعل في هذا الركن المشئوم من العالم في هذا الزمهرير بينما بلدي هو أجمل وأدفأ بلدان الأرض؟!.. لو كنت أجيد الرومانية

لقلت له إنني مجنون أيها الرجل الطيب.. مجنون.. ومعتوه.. وأبحث عن حتفي

جاء العجوز في تؤدة حاملة وعاء تفوح منه أبخرة زكية.. ورغيفين طويلين.. وطبقًا به بعض شرائح اللحم، أشار القسيس إلى اللحم ولي وقال كلامًا ما لم احتج لمجهود كبير كي أعرف معناه..

قال (جوستاف):

- يقول لك إن هذا اللحم..

-. ضأن.. وليس لحم خنزير.. أليس كذلك؟

- وكيف عرفت؟

إن لغة الايماءات والنظرات عالمية يا صديقي.. لو أنك شاهدت فيلمًا باللغة

البنغالية لفهمت ثمانين في المائة من قصته دون جهد..

وعلى المائدة جلسنا نرشف الحساء الذي لا أعرف ما هو وإن كنت أميل بعد تناوله إلى الاعتقاد أنه حساء أحذية.. وكانت تسبح فيه أشياء مرعبة لكنه كان ساخنًا وهذا يكفى!

على حينٍ جلس (جوستاف) والقس يتبادلان حديثًا لم أفهم حرفًا منه.. سيل من الشينات والخاءات ينهال فوق رأسي ويكاد يطير المائدة بما عليها.. هل اللغة الرومانية خشنة إلى هذا الحد؟

عينا القس تتسعان خلف نظارته وهو يضغط على مخارج الحروف.. و(جوستاف) يبدو غير مصدق وإن كان قد

توقف عن المضغ مما دلني على أن الأمر أثار اهتمامه إلى حد ما، الأب يرسم علامة الصليب..

- عم تتحدثان يا (جوستاف)؟..

نظر إلي في تهكم.. ثم قال:

- خمن!.. ألست خبيرًا في الأفلام البنغالية؟..!. الايماءات يا صديقي.. الايماءات!

- حسن.. لا تمزح!.. هناك معتقد ما يؤمن به الأب ويخشاه كثيرًا لكنك لا تصدقه.. وإن كانت القصة قد بدأت تؤثر فيك..

- حسن.. أنت على حق.

- ولأكون أكثر دقة.. يقول لك إن الشيطان أو روح الشر - أو شيئًا من هذا

القبيل - يتجول في القرية هذه الليلة المشؤومة لهذا أغلق السكان بابهم وغرسوا الصلبان على الأبواب، وإنه يسأل الرب أن يحفظنا هذه الليلة

نظر إلي في شك.. وتساءل:

- قلت إنك لا تعرف حرفًا من الرومانية؟

- بالفعل.. لكنها الايماءات كما قلت لك.. ثم إن القصة هي دائمًا هكذا.. تعلمت ذلك من قصص (إدجار آلان بو)[3]..!

- وهل أدركت من الايماءات أيضًا أنه مزق رجلين أمس؟

- من هو؟

- إنه (بيلاسكو) المذءوب.. أو بمعنى آخر، الذئب الذي كان رجلًا..

* * *

٤ - رعب في القرية..

صحت في ذهول:

- هل.. هل تتحدث عن أسطورة الرجل الذي يتحول إلى ذئب حين يصير القمر بدرًا؟

قال في تشف إذ نجح أخيرًا في إثارة فضولي:

- إن رومانيا هي موطن هذه الأسطورة.. وبالتحديد سهل الدانوب،

وللمزيد من الدقة الجغرافية يبدو أن موطنها هذه القرية للأسف!

ثم ابتلع ملعقة من حسائه.. ودعاني بإشارة إلى أن أواصل الاكل.. لكن ما أكلته كان قد تحول في معدتي إلى قالب من الطوب.. خرافة أخرى تلاحقني في هذا الركن من العالم كأني الوحيد المؤهل لهذه المهام القذرة..

- لكن القمر كان بدرًا البارحة.. المفروض بحسب الأسطورة أن يسود الهدوء والسلام القرية بعد ليلة البدر الصاخبة، ويعود المذءوب إنسانًا.

تبادل بعض كلمات مع الأب (أنطونيسكو)، ثم التفت إلي:

- ثلاثة أيام..

- إذن يظل المذءوب يعيث فسادًا في القرية ثلاثة أيام.. هذا كثير..
وإذن فليلة باكر هي آخر ليالي هذا الشهر..
- أظن هذا..
وشرعت أنهي حسائي على حين استمرت المحادثة بين (جوستاف) والقس، التفت إلي (جوستاف)، قائلًا:
- قلت للقس إنك لا تصدق حرفًا..
- (جوستاف)! إن هذا لا يليق.. إن آرائي الخاصة...
- وهو يدعوك أن تزور الحانة باكرًا لتسمع ما سيقوله الرجال هناك..
- ولكن اعتذر له.. أنا لم أقصد.. يا لك من...

وعادا للحديث مرة أخرى.. وسمعت كلمة (نوسفيراتو) عدة مرات.. ثم أشار إلي القس ضاحكًا..



وعادا للحديث مرة أخرى .. وسمعت كلمة (نوسفيراتو) عدة مرات ..

- إنه يسألك عن مغامرتك مع الكونت (دراكيولا)..

نظرت إليه في غيظ، وقلت:

- قل له إنني اقتربت من القصة بشكل مروع.. لكني حتى هذه اللحظة لست واثقًا من شيء، قد تكون كل القصة سلسلة من الأوهام، وقد تكون دعابة قاسية شربتها حتى الثمالة.. لكني أعرف شيئًا واحدًا..

لم أجد أي دليل مادي على أن مصاص الدماء عاش أو يعيش في هذا العالم.. وإن موقفي من الخرافات لم ولن يتغير.. كل ما لا يرى ولا يسمع ولا يشم ولا يعقل هو غير موجود، هذا هو رأيي في أسطورة (دراكيولا)..

قال (جوستاف) مصححًا:

- (نوسفيراتو)!.. إنهم يفضلون هذا الاسم هنا وفي بولندا والمجر..

- نعم.. هم على حق.. فهو يبدو محببًا للنفس..!.

عادا يتحدثان عشر دقائق.. ثم التفت إلى (جوستاف) قائلًا:

- يقول الأب إنك مخطيء!..

يا لبلاغة هذه اللغة!.. ربما استغرقت ساعتين كي أقول له كلمة مساء الخير، تثاءبت فقال الأب شيئًا ما للسيدة.. فقامت على الفور تحمل مصباح الكيروسين.. واقتادتنا في تؤدة إلى غرفة صغيرة بها فراشان نظيفان.. وقالت شيئًا ما هو - بلا شك - كلمة مساء الخير بالرومانية، وعلى

الفراش ارتمينا بثيابنا لأن حقائبنا كانت في السيارة ولأن أحدنا لم يكن مستعدًا للنزول في الصقيع والظلام كي ينعم بالنوم في بيجامة.

... وغرقت في نوم عميق....

... غريب هو عواء الذئاب في هذه القرية.. صوت قوي متحشرج أليم كأنه إنسان يتألم في أعماق الجحيم.. أيقظني هذا العواء ثلاث مرات بعد منتصف الليل.. فكنت أردد آية الكرسي وأعاود النوم متخيلا ذلك الذئب البائس الذي يمشي الآن في الظلام والثلوج، باحثا عن فريسة**!**..

في الصباح خرجنا - أنا و(جوستاف) - نسير في القرية..

- أول شيء هو أن نجد ما يلزم للسيارة كي نواصل الرحلة.. ثاني شيء هو أن نذهب للحانة ـ كما قال الأب - فقد نجد شيئًا يهمك.. أو يهمني أنا..

وعند جراح القرية توجه (جوستاف) إلى رجل بدين يكسوه الشحم والعرق ويصرخ، تحدث معه صديقي فواصل الصراخ.. ثم عاد إلي.. قلت باسمًا:

- كلهم في هذه القرية يصرخون ويرفضون طلباتك..

قال في صرامة:

- لامجال للمزاح.. إنه يقول إن الكريفات سدت كل الطرق بالثلوج.. وخط التليفون الوحيد مقطوع فلم يستطيعوا استدعاء كاسحات الثلوج..

- وهذا يعني.
- نعم.. بالضبط.. يعني أننا سجناء في هذه القرية حتى يذوب الجليد!

* * *

في الحانة طلب (جوستاف) بعض الروم له وقهوة لي، وجلسنا وسط بحر من الشوارب الكثة السلافية ونظرات الشك.. ورجال مفتولو العضلات زادهم الفراء الذي يرتدونه ضخامة.. وكلهم تقريبًا مسلحون ببنادق ضخمة عتيقة..
- كلهم هنا من الرعاة.. وحياتهم خشنة إلى حد لا يوصف، ثم يجدون أنفسهم أمام فتاتين رقيقتين مثلي ومثلك!

قالها (جوستاف) وهو يرشف قدحه في حين انكمشت أنا في مقعدي وسط هذا المناخ غير المرحب، اقترب منا صاحب الحانة فأخرج (جوستاف) حفنة من اللايات4 دسها في قبضته.. وقال شيئًا ما، من ثم تهلل الرجال طربًا وشرعوا يحتسون الروم في مرح مرعب..

إنها تلك الحيلة القديمة: كل مشاريب (الجدعان) على حسابي.. من ثم تزول الكراهية والحواجز البشرية في ثوان.. اقترب منا رجل قوي البنية وشد كرسيًا على مائدتنا وصافحني أنا و(جوستاف) بيد كادت تهشم أصابعنا، وقال:

- (إستبان)!.. إستبان هيرشوفتش..
- (جوستاف نيكولسكو)..

- (رفعت إسماعيل).
سأله (جوستاف) عن شيء ما بالرومانية.. فشرع الرجل يفكر، ثم بدأ يحكي قصة مروعة طويلة وهو يئن من حين لأخر، ثم تهانف.. فأحاط (جوستاف) كتفه بذراعه، وقال:
- إنه فقد صديقه أول أمس.. تذكر صديقه هذا أنه لم يغلق حظيرة الأغنام من ثم ترك زوجته وطفليه وخرج في الظلام.. بضع ثوان لكنها كافية.. سمعت زوجته صرخة مريعة، وحين خرجت مسلحة لترى وجدت زوجها ممزقًا على الأرض وجواره آثار أقدام ذئب..
- والآخر؟.
- إنه عبيط القرية (كونستانتين)..

- وهل حدث شيء ليلة أمس؟
- لا شيء فيما نعلم.. كنا نحن المرشحين لنيل هذا الشرف لو لم يستضفنا القس..
صحت في حنق:
- إذن تركنا هؤلاء الجبناء ولم يفتحوا أبوابهم بغرض ترك وجبة عشاء مضمونة للرفيق (بيلاسكو).. يا له من ذكاء!
عاد يتحدث مع الراعي.. ثم التفت إلي:
- يقول إن أحدًا لم يفتح بابه لنا لأن المذءوب يستطيع الكلام بصوت البشر أحيانا مقدمًا أعذارًا مقنعة، ومن رأيه أن الاب (أنطونيسكو) اقترف جريمة في حق نفسه وحق أخته حين أدخلنا بيته أمس!

وأفرغت فنجان القهوة في حلقي.. ثم سألت:

- قل له من هو هذا المذءوب؟.. هل يعرفونه؟

- يقول إنهم لو عرفوه لقتلوه.. لكنه أحدهم بالطبع!.. ثم أنهم قتلوا مذءوبين كثيرين من قبل..

- ماذا؟.. هل هم كثيرون؟

- طبعًا؛.. هناك دائمًا واحد.. الأسطورة تقول إن من يجرحه المذءوب يتحول لمذءوب جديد في الشهر التالي. كأنه وباء.. فإذا قتلت المريض الأول يبقى المريض الثاني..

- وحين تقتله يكون قد ابتلي العالم بثالث..

- وهكذا.. سلسلة طويلة منذ القرون الوسطى إلى يوم الدينونة..

- وكيف يقتلون المذءوب؟..

- الأمر يقتضي إغماد نصل فضي في قلبه بالطبع وهو في صورته الآدمية لأنه وهو ذئب يكون في أقوى حالاته.. يمكنه اقتلاع شجرة من جذورها بكل سهولة..

- وكيف يعرفون وهو آدمي أنه هو المطلوب؟

عادا يتحدثان.. وأشار (إستبان) إلى رجل يرتدي ثيابًا قذرة وأصلع الرأس، فجاء الرجل، طلب منه شيئًا ما.. فاخرج الرجل من سترته لفافة وألقاها على المائدة وهو يرمقني في شك..

- يقول (إستبان) أن كل إنسان في القرية يعرف أنه إذا هاجمه المذءوب عليه أن يحاول إحداث إصابة ما به.. فإذا نجا بعد ذلك بدأنا في البحث عن صاحب هذه الاصابة.. ويتم إعدامه بنصل من الفضة..

- وهذه اللفافة؟

- هذا الرجل يدعي (إيدو).. هاجمه مذءوب في الشهر الماضي بين الأحراش. وقد استطاع أن ينتزع منه مخلبًا ثم فر بجلده.. في الصباح وجد في جيبه بدل المخلب شيئًا آخر.

- مثل.. بعض الشوكولاتة مثلاً؟

فتح (إستبان) اللفافة ببطء.. كان إصبعًا مجعدًا.. إصبعًا آدميًا يحيط به خاتم ذو فص أزرق..

لم يحتج (إيدو) لجهد كبير في البحث عمن فقد إصبعه في القرية.. بل هو لم يحتج حتى إلى ترك بيته.. إن هذا الخاتم هو خاتم زوجته!!

* * *

٥ - إيكاترينا..

صحت في ذهول:

- يا للهول!

قال (جوستاف) وهو يبلع ريقه:

- هذا هو ما يقولونه.. أنا لا أصدق لكن قصتهم محبوكة إلى حد مرعب..

قلت في حنق:

- وطبعًا قتل زوجته بنصل فضي..

- طبعًا..

- وهكذا يستطيع أي سفاح أن يقتل زوجته ويقطع إصبعها ثم يخرج ليصيح في القرية أنه اكتشف أنها مذءوبة وأنه نفذ فيها قصاص السماء!

التفت (جوستاف) بشكل تلقائي إلى الرجلين لينقل لهما وجهة نظري، فصرخت:

- لا يا أحمق!.. لن نخرج أحياء من هنا!

فتوقف عن الكلام.. لكن الرجلين خمنا ما قلت أو كادا.. اللعنة على لغة الايماءات هذه!.. ولمحت نظرة غضب في عيني (إيدو).. وتحسست يده القذرة نصل خنجره المعلق في حزامه.

- أهنئك على حماسك في الترجمة!.. حاول أن تغير الموضوع..

وعاد (إستبان) يتحدث بصوته العميق الغليظ، في حين حزم (إيدو) لفافته وأعادها لجيبه وهو يرمقني بنظرة نارية..

قال (جوستاف):

- منذ عام نجح (ستيفانو) في قطع رجل مذءوب بفأسه.. في الصباح تحولت الرجل المخلبية المشعرة إلى رجل إنسان، وفي

نفس اليوم وجدوا ابن العمدة وقد فقد ساقه في حادث.. بالطبع نفذ أبوه الحكم بنفسه..

- يا للبشاعة!..

- المذءوب الجديد (بيلاسكو) لم يستطع أحد حتى الآن أن يحدد هويته أو يحدث به إصابة ما..

وفي هذه اللحظة وقعت عيناي على.. على أروع ما رأيت في حياتي!

إن الكلمات لن تنجح في التعبير عن وقع كل هذا الجمال على روحي.. أحتاج إلى لغة أرق وأكثر جمالًا.. ربما هي الموسيقا، فتاة سوداء العينين والشعر والملابس تقف جوار (إستبان) وتنظر إلي في رقة نظرة ثابتة أذابتني من الخجل

قالت لـ(إستبان) شيئًا ما فرد عليها بفظاظة.. يا له من وغد!.. وقال (لجوستاف) شيئًا آخر وقد بدا عليه الاشمئزاز.

قال (جوستاف):

- هي (إيكاترينا) ابنة صاحب الحانة.. قالت إنها تريد إخبارك بشيء لكن (إستبان) زجرها وقال لها إن النساء يصمتن حين يتكلم الرجال..

- الوحش

ثم فكرت قليلًا.. فخطرت لي فكرة.

- (جوستاف).. قل لي.. بالطبع في هذه الحانة مكان للمبيت.

- طبعًا.. ككل حانة قذرة في العالم..

- إذن قل لصاحب الحانة إننا نطمع في المبيت عنده.

- لكن لماذا؟.. هناك الخان.. والكنيسة، و...

- لا.. أريد المبيت هنا..

- هل سال لعابك عند رؤية أول فتاة في القرية؟.. إنها ليست....

- لم أزعم هذا لحظة.. فقط أريد أن أكون جوارها في هذه الليلة.

ليلة مسخ الذئب..

- يا لها من رومانسية ؛.. كم أنتم ملتهبو العواطف يا أبناء البحر المتوسط!

ونادى صاحب الحانة وأخبره برغبتي.. فهز هذا الأخير رأسه مرحبًا.. وأشار إلي أن أصعد معه سلالم خشبية نخرة إلى..

إلى أقذر حجرة رأيتها في حياتي.. منتهى البؤس والفقر والضعة.. حتى دورة المياه كانت عبارة عن جردل صدئ جوار الفراش الذي لم يكن أفضل

- والآن اسمع يا رفيق (رفعت)..

- أعرف ما ستقول.. اذهب أنت ونم في الخان أما أنا فباق!

- لقد وجدت مصيرك!..

قالها وهو يبصق على الأرض التي لم تزدها بصقته قذارة في الواقع.. وعلى الباب استدار ليسألني سؤالًا أخيرًا..

- والترجمة؟

ثم هز رأسه مستدركًا:

- آه!.. نسيت لغة الايماءات والنظرات!

وأغلق الباب قبل أن أرد عليه بما يناسب وقاحته!

جلست على الفراش وتأملت المكان في اشمئزاز.. هل أنا مراهق إلى هذا الحد؟ أم أنه حافز خفي جعلني أفعل ما فعلت؟..

دق الباب فوثب قلبي في فمي.. تخيلت يدها النحيلة الحساسة الباردة تدق الباب لتقول شيئًا ما بالرومانية يقتلني قتلًا..

فتحت الباب ملهوفًا فوجدت صاحب الحانة البدين يضحك لي كاشفًا عن أسنانه النخرة.. أرق ابتسامة استطاع أن يرسمها على وجهه.. أعوذ بالله!.. ناولني منشفة ممزقة وصابونة ملوثة بالشحم ثم انحنى ليوحي إلي أن الخدمة ممتازة.. وانصرف!

واضح تمامًا أنه هو الذي سيرعاني في هذه الغرفة!..

كانت الساعة الآن الثانية ظهرًا.. لم يكن هناك داع لإضاعة اليوم كله في حظيرة الخنازير هذه! لهذا أزمعت أن ألحق بـ(جوستاف) في الحانة بالطابق السفلي كي نقرر ما نفعله بقية اليوم..

الباب يدق ثانية.. لا شك أن الوغد سيعطيني هذه المرة فأرًا ميتًا لوجبة الغداء.. اتجهت إلى الباب وفتحته فرأيت (إيكاترينا)!..

ولكن قولوا لي.. هل يوجد أجمل ولا أنقى من هذا؟

- جئت.. أقول..

هل أنا أحلم أم أنها تتحدث الإنجليزية؟.. إنجليزية رديئة في الواقع لكنها مفهومة..

- أنت.. بالذئب.. تهتم؟

- أنا نعم..

خيل لي - لا أدري لماذا - أنها ستفهمني أكثر لو تحدثت بلغة إنجليزية ركيكة وهو رد فعل تلقائي نتخذه حتى في العربية حين يحدثنا أحد الأجانب بلغتنا..

- الذئب.. هو هنا..

- أين؟

- في.. الحانة.. هذه!..

* * *

٦ - من هو؟

قالت وهي ترتجف كالورقة.

- أنا هاجمني من شهر.. في المخزن يفعل.. أنا.. أهرب.. أنا أجرح ذئب.. هو.. جرح في رأس.

إنها قصة مشوقة!.. إذن لقد هاجمها المذءوب الشهر الماضي ولقد استطاعت أن تفر وأن تجرحه في رأسه، وهكذا حين أشرق النهار كان هناك واحد مجروح الرأس تعرفه هي.. وهو الآن يشرب الخمر في الطابق السفلي من الحانة!..

- هو.. لا أعرف.. يلبس.



هل أنا أحلم أم أنها تتحدث الإنجليزية ؟.. إنجليزية رديئة فى الواقع
لكنها مفهومة ..

- غطاء رأس؟

- نعم.. نعم.. غطاء رأس، (إستبان) يلبس.. (ميلو إنستادت) يلبس.. (كوثار) يلبس.. (جورج).. (ستيفانو).. رأس

- هذا طبيعي يا صغيرتي، في هذا الطقس حتى الشيطان نفسه يلبس غطاء رأس

- لا.. لا.. هو. هم أبدًا يخلعون لا..

هل فهمت هذا الجزء؟.. إنها نقطة هامة.. الطبيعي أن الرعاة يشربون ويسكرون ويتشاجرون.. لكن هناك خمسة لم يحدث طيلة الشهر الماضي تحت أية ظروف أن استطاعت رؤية رءوسهم عارية، هذا التشبث المريب بتغطية الرأس أثار شكوكها..

فكرة ذكية.. لكن هناك حقيقة لا يجب تناسيها ألا وهي، أن الفتاة مخبولة.. مخبولة تمامًا!.. إذا تغاضينا عن جمالها وضعفها ورجفتها..

- تساعدني هل أنت؟

- نعم يا صغيرتي.. أساعدك أنا سوف!.. لكن كيف أتخلى عن قناعاتي وثقتي بالعلم لأضع ثقتي في قصتك الملفقة عن جرح الرأس.. القصة التي ستؤدي إلى ذبح أول مسكين يتصادف أن عارضة الشباك ضربت رأسه أو قذفه طفل شقي بقالب طوب؟

ربت على كتفها مطمئنًا.. وأوصلتها للباب فخرجت وهي ترسم علامة الصليب..

نزلت إلى الحانة.. الطابق السفلي فوجدت (جوستاف) جالسًا على مائدة مع (إستبان) وقد صار ثملًا تمامًا، جلست على نفس المائدة ومضيت أتأمل وجوه الرجال الخشنة وهم يصخبون ويمزحون مزاحًا فظًا سمجًا كله لكمات وشتائم أحدهم هو المذءوب كما قالت هي.. ولكن من هو؟.. أي أسماء ذكرتها؟.. إن هذه الأسماء لا تعلق بالذاكرة.. (جورج) قالت.. و(ستيفانو).. ثم.. ثم.. (كثار).. كلا.. (كوثار).. ثم (ميلو).. بقي واحد، (إستبان).. بالطبع هو (إستبان) الجالس على هذه المائدة معنا.. تأملته وتأملت وجهه المشعر وهو يتحدث مع جوستاف، مفهوم تمامًا أن تعتقد الفتاة أن هذا الرجل

مذءوب.. فهو لا يحتاج لأنياب ومخالب كي يغدو مرعبًا.
ولكن كيف ولدت أسطورة المذءوب؟..
إن نفس النغمة تتكرر بشكل أو بآخر في رائعة (ر. ل. ستيفنسون) (الدكتور جيكل والمستر هايد)، الرجل الطيب الشريف الذي يتحول في ظروف معينة إلى شيطان مفترس.. هل هي فلسفة إنسانية ما تتحدث عن أن لكل منا جانبين: أبيض وأسود؟!
هل هي محاولة ساذجة لتفسير حالات الانفصام التي يتحول فيها الشخص إلى نقيضه دون سبب واضح؟!.. على كل حال فالفكرة مفزعة ولا أنكر هذا لحظة.. وأعتقد أن تحول (جوستاف) أمام عيني

إلى مسخ ذئب لكفيل بجعلي أخر ميتًا دون أن أنطق بحرف!..

الساعة الآن الخامسة مساء..

اقتربت من (جوستاف) - ورائحة الخمر من فمه تكاد تقتلني - وقلت له:

- هل هناك طريقة ما تجعل هؤلاء الرجال يخلعون أغطية رءوسهم؟

- أريد رؤية رءوسهم عارية ؛..

- هل جننت؟.. أولا قررت فجأة المبيت هنا.. والآن تريد رؤية رءوس الرعاة.. إن الصقيع...

-.لا.. لا.. لم يتجمد مخي، أرجوك افعل شيئًا!..

- دعني أفكر..

- يمكنك مثلاً أن تدعوهم لشرب نخب ما وأن يخلعوا قبعاتهم في صحة هذا النخب.

- هل تمزح؟!.. لسنا في ناد بلندن.. إن هؤلاء السادة أبعد ما يكونون عن الرقي.

- إذن فلنحضر أيقونة أو شيئًا مقدسًا لنجبرهم على خلع أغطية رءوسهم تحية له..

- انهم لا يعرون رءوسهم في الكنيسة نفسها..

- إذن..

وهنا نهض (جوستاف) مترنحًا حاملًا الزجاجة في يده وقال:

- هناك طريقة أسهل وأضمن..

وصاح بالرومانية بشيء ما.. فتعالت صيحات الدهشة.. ورأيت كل العيون تنظر إلي في كراهية أو احتقار أو شك!.. وصاح أحدهم مستنكرًا..

- ماذا قلت لهم أيها المعتوه؟

- قلت لهم ما تريد دون لف أو دوران.. قلت لهم إن السيد القادم من مصر يرغب - بعد إذنكم - في مشاهدة رءوسكم عارية!!

- يا لك من أحمق!

لقد كان ثملًا.. ووضعني في موقف ليس محرجًا فقط بل هو خطر على حياتي أيضًا.. كلهم ينظرون إلى وقد كوروا قبضاتهم.. هناك من أعتبرها إهانة وهناك من اعتبرها حماقة وهناك من اعتبرها

نزوة، واحد فقط - بلا شك - أدرك أنني أعرف كل شيء!

اقترب (إستبان) مني وهو يرمقني بنظرة نارية.. ثم ضرب المائدة بقبضته، وشرع يصرخ بكلام كثير أدركت بصعوبة أنه موجه لي..

قال (جوستاف):

- إنه يقول إنك رقيع وسمج وابن..

- أنا أفهم هذا الجزء!..

قلتها وأنا أرتجف..

- ويقول إنه يطلب تفسيرًا..

ابتلعت ريقي، وتحاشيت نظرات الرجال النارية، وقلت:

- قل له أن يجلس لأشرح له، بشرط أن يكون هذا دون أن يسمعنا أحد..

نقل له (جوستاف) معنى كلماتي، فتوقف لحظة يرمقنا في شك وكراهية.. ثم حزم امره.. فالتفت إلى الرجال وامرهم بشيء ثم إنه سحب كرسيه وجلس على المائدة أمامي..

وفي عبارات سريعة نقلت له ما قالته لي الفتاة في غرفتي.. وقلت له إنني أشك فيه.. وإنني أطالب بكشف الاوراق قبل أن يحل الليل..

قطب جبينه ورشف جرعة من زجاجة (جوستاف) ثم مسح شاربيه بظهر يده المشعرة.. ومضى يحدق في وجهي فترة ثم نهض.. وصرخ بأعلى صوته في الرجال..

- (ستيفانو)!!

فأتى له شاب على شيء من الوسامة يربط رأسه بمنديل قذر..

- (كوثار)!!

نهض رجل بدين قصير القامة من مقعده وجاء لمائدتنا..

- (ميلو إنستادت)!

فأفاق (ميلو) من إغفاءته القصيرة على مائدة البار وجاءنا وهو يصلح غطاء رأسه المصنوع من فراء الثعالب

- (جورج)!

فجاء شاب ملتح يضع على رأسه غطاء من الجلود، التفت (إستبان) إلى باقي الرجال وقال شيئًا فساد التوتر.. ونهض أحدهم لكي يغلق الباب.. باب الحانة.. وبدأ الرجال اللذين ناداهم يشمرون عن

أذرعتهم.. فقد فهموا أنه ناداهم لكي يفتكوا بي! وهو أمر وارد بالنسبة لي لأن كلامه الكثير بالرومانية قد يكون معناه: أن هذا السيد يقول إنكم مذءوبون فخذوا بثأركم منه!

التفت (إستبان) إلي وقال كلامًا ما.. ثم أشار إلى الرجال ليجلسوا حول المائدة.. ثم شرع يتكلم بصوته العميق ضاغطًا على كل حرف..

قال (جوستاف) مترجمًا:

- إنه يحكي ما قلته أنت.. ويقول لهم يا رفاق.. إن المذءوب هو أحد الخمسة الجالسين على هذه المائدة.. إنه يدعوهم لكشف رءوسهم ويقسم إنه سيفجر رأس من لا يفعل برصاص بندقيته..

وفي بطء واستسلام بدأ الرجال يعرون رءوسهم.. الصمت يسود المكان.. والحلوق جافة تترقب ما سيحدث.

تعرت أربعة رءوس.. ثم في حركات درامية مد (إستبان) يده لغطاء رأسه وانتزعه ووضعه على المائدة، لو كانت الفتاة كاذبة - في موضوع الجرح - فسأكون في موقف عسير..

كانت كل الرءوس سليمة..

رأسان فقط هما رأسا (ستيفانو) و(مليو انستادت) كان بهما جرح.. جرح قطعي طويل مغطي بخصلات الشعر، صاح الرجال في إثارة.. في حين أخذ الرجلان يصيحان في هلع بكلمات ما.. طبعًا كل

منهما يشرح لهم أين وكيف اصيب بهذا الجرح.

عاد (إستبان) يتكلم.. إن هذا الرجل قوي الشخصية وله نفوذ هائل في قومه، صيحات الموافقة تتعالى في حين ازداد الرجلان تعاسة.. نظرت إلى (جوستاف) - الذي جرفته الأحداث فلم يعد يترجم - متسائلًا، فقال:

- يقول (إستبان) إن الموقف صار أكثر وضوحًا.. وإننا سنجلس كلنا هنا طيلة الليل حتى يتحول أحد الرجلين إلى مذءوب.. وأن السماء هي التي ستحسم القرار..

- ولكن كيف يقتل المذءوب عندئذ؟

- أول علامات التحول هي احمرار حدقتي العينين.. وهو سيراقبهما كالصقر

بانتظار أول بادرة من أحدهما عندئذ سيذبحه بسكين الفضة قبل أن يكتمل تحوله!

* * *

٧ - المقابلة..

أخذت الدقائق تمضي بطيئة مملة ونحن جالسون في الحانة ملتفون حول (ستيفانو) و(ميلو انستادت) وهما عاريا الرأس باكيان يرتجفان..

الدقائق تمضي.. بطيئة..

فجأة صاح أحدهم بشيء ما.. فالتفت الجميع إلى (ميلو)..

- يقولون إن عينيه احمرت!

بالفعل كانت عيناه محتقنين بالدم.. لكن الاحمرار كان في الملتحمة.. بياض العينين.. وهذا - بالطبع - نتيجة لكثرة البكاء مع كل الحرارة والدخان والجو الخانق المحيط

- لكن هذه ليست حدقته.. إنها الملتحمة.

- وهل تتوقع من هؤلاء الرعاة معرفة الفارق التشريحي بين الحدقة والملتحمة؟...

إنها عين حمراء.. وهذا يكفي!..

تصايح الرعاة في حماسة وقد صرعتهم نشوة الموقف في حين تجمد (ميلو) في

مقعده وقد بدا عليه هلع لا يوصف.. كالفأر الذي وقع في المصيدة ويرى ألا داعي لإضاعة لحظاته الأخيرة في المقاومة..

شعرت بالغثيان.. وبأنني على وشك إفراغ معدتي. فتحاملت على نفسي متجهًا للباب.. ناداني (جوستاف):

- ماذا هنالك يا رفيق؟
- قيء..
- والمذءوب؟
- ألستم تحتجزونه هنا؟..

وفتحت الباب الخشبي.. وفي الخارج.. كان الجليد وهواء الليل البارد.. شعرت أنني أحسن حالًا، لكن في أعماقي كان شعور من الندم على كل هذا الذي تسببت فيه.. ربما أدت حماقتي إلى مذبحة.. لكن

كان هذا هو الحل الوحيد الذي وجدته لإنقاذ حياتي أنا من المأزق الذي أدت بي إليه حماقة (جوستاف).. وطبعًا كانت حماقة (إيكاترينا) هي التي بدأت سلسلة الحماقات هذه التي ستؤدي إلى ذبح (ميلو) أمام عيني..

كان صخب الرجال يتعالى داخل الحانة خلف النافذة.. وكنت أدرك أن علي أن أجد مخرجًا ما.. ولكن ما هو؟!.. لا أحب أن أرى إنسانًا يموت لأنه أصيب بالتهاب في الملتحمة.. ولكن كيف أمنع ذلك؟

وهنا سمعت صوت زئير وحشي.. رفعت رأسي فرأيتني أمام المذءوب!!

هل سقط أحدكم في قبضة مذءوب من قبل؟!.. إن الذين عاشوا هذه التجربة

يمكنهم تجاوز هذا الجزء.. أما سعداء الحظ الذين لم يحدث لهم هذا فلهم أقول إنها تجربة شنيعة!.. أن تري أمامك كائنًا عملاقًا يرتدي ثيابًا بشرية لكن وجهه وجه ذئب ضخم.. ويداه مخالب ذئب.. وصوته صوت ذئب.. ويقف على قدميه، عيناه حمراوان كالدم.. وفمه مفتوح يكشف عن أنياب بيضاء لامعة.. وصدره يموج بصوت حشرجة جهنمية، وهذا الكائن يهاجمك أنت!!



وهنا سمعت صوت زئير وحشي .. رفعت رأسي فرأيتني أمام المذءوب !!

ماذا تفعل؟!.. ستصرخ.. لكن أليست هذه صرخات نهاية أكثر منها صرخات استغاثة؟.. حاول أن تهرب فوق الجليد المنزلق لكنه حتمًا أسرع منك، حاول أن تركله أو تضربه لكنه صلب كجدار..

ستسقط على الأرض متكورًا وهو يجثم فوقك كالكابوس ومخالبه تمزق لحم وجهك.. وبقوة يائسة توجه له لكمة قوية في عينه الحمراء.. فيصرخ.. وينهض من فوقك.. وفي اللحظة التالية يحيط بك الرعاة وقد خرجوا من الحانة على ضوضاء المعركة...

، ويفر هذا الوحش بين الثلوج..

هذا هو بالضبط ما حدث لي!..

وفي داخل الحانة أجلسوني ومسحوا وجهي بخرقة مبتلة.. وقدموا لي شيئًا في قدح شربته قبل ان أسأل ما هو، أحاط (جوستاف) كتفي في لهفة.. وسألني:

- ماذا حدث؟

- هو!..

- (بيلاسكو)؟

- نعم

- يا للسماء!.. إذن هو ليس (ميلو)؟!

- وهل شككت أنت في ذلك؟!

- إذن من هو؟!..

- لا أدري.. لكني لكمته لكمة رهيبة كادت تفقأ عينه اليسرى..

استدار (جوستاف) الرعاة وشرع ينقل لهم كلامي، بدت معالم الخلاص على

وجهي الشابين المتهمين.. في حين أخذ الكل يثرثرون في حماسة.. غدًا بالطبع سيكون يومًا وبيلًا على كل من تلقى طوبة أو ضربة على عينه اليسرى.. لكنهم ما زالوا يرمقونني بنظرات الشك والتحفز، (إستبان) يشير إلى ويقول شيئًا متشككًا.. (جوستاف) يصرخ فيه بحماسة نافيًا ذلك الشيء.. ماذا حدث؟

- ماذا هنالك يا (جوستاف)؟
- لا شيء.. يرون التخلص منك الآن!..
- ماذا؟
- قبل أن تقتل أطفالهم!؟
- أنا..؟.. كيف؟
- في الشهر القادم.. حين تتحول إلى مذءوب!..

-مذءوب؟.. كيف؟
نظر إلي نظرة ذات معنى.. وهمس:
- إنه جرحك في وجهك عدة جروح.. ألم تلحظ ذلك؟!

* * *

جلست في مكاني أصغي للمناقشات والصراخ وأنا أفكر.. من الغريب أنني بالأمس نفس الوقت لم أكن أعرف شيئًا عن قصة المذءوب، أليس غريبًا أنني قد انغمست - خلال أربع وعشرين ساعة - في المشكلة إلى حد أنني أنا نفسي في طريقي لأكون مذءوبًا!.. يا له من تقدم!!
كنت أعرف تمامًا أن القصة لا حظ لها من الصحة.. وأن هذا الذي واجهني في

الخارج هو شيء له تفسير علمي، لكن المشكلة العاجلة الآن كانت هي مواجهة هؤلاء الحمقى المسعورين الذين لا يريدون سوى الدم..

بصعوبة - رغم سكره البين - استطاع (جوستاف) أن ينقذ حياتي بأن أقنع الرعاة أن يتريثوا.. وأن يرفقوا بي. مع التأكيد على أن الشهر القادم لن يشهدني في القرية ولا في رومانيا كلها.. بل سأكون في مصر حيث أنكب وادي النيل السعيد بأسطورة الرجل الذئب.. أي أن رومانيا ستصدر عدوى المذءوب إلى إفريقيا كلها!!

تكفي هذه الاثارة لليلة واحدة..

وفي تؤدة نهضت، وفي خطوات ثابتة صعدت السلالم فلم يعترض طريقي أحد..

اتجهت لغرفتي القذرة.. وخلعت حذائي وارتميت فوق الفراش وأنا أشعر به يعلو ويهبط.. يا له من يوم!.. يا له من يوم!..

الباب يفتح في صرير بطيء.. فليكن هذا هو المذءوب أو الشيطان نفسه. فلن أستطع النهوض ولا المقاومة.. إذا كان يريد افتراسي فليفعل دون أن يوقظني.. هذا صوت (إيكاترينا) الناعم..

- هل شيئًا تريد.. سيد؟

قلت وعيناي مغمضتان:

- لا يا ملاكي.، لا.. شـ.. شيء

أغلقت الباب وخرجت.. ثم فتحته وأدخلت رأسها الأسود الصغير:

- شكرًا.. من أجلي.. سيد...

وخرجت..

الفراش يموج بي.. لكم أنا متعب..

❋ ❋ ❋

نور النهار يدخل من الشباك، أفتح عيني وأحرك أطرافي شاعرًا بالقوة التي منحتني إياها نوم الليلة الهادئ. لقد غسلني هذا النوم من الداخل.. وإنني الآن. لصافي الذهن إلى حد مفزع..

نهضت إلى حوض الغسيل القذر.. وغسلت وجهي، واختلست نظرة إلى المرآة المكسورة، كان هناك جرحان قطعيان طويلان على خدي الايسر، ولكني طبيب ولا يمكن خداعي بسهولة من قال إن هذين الجرحين هما آثار مخالب ذئب؟

انفتح الباب خلفي ورأيت الظل المحبب الذي فتنني لـ(إيكاترينا) تحمل في يدها صينية عليها أشياء ما المفروض أنها تؤكل، ثم وضعتها على المائدة خلفي والتفتت إلي دون أن ترفع وجهها..

- هذا.. إفطارك هو.. سيد..

كان شعرها الاسود منسدلًا على جبينها.. لهذا نهضت واقتربت منها وبأناملي داعبت ذقنها الصغيرة، هتفت في حرج باسم:

- أرجوك.. لا.. سيد.. أنا لست...

أزحت الخصلة المنسدلة على جبينها.. هذا هو ما كنت أبحث عنه.. والآن يا ملاكي أنت في مأزق مرعب، وإنك

لساذجة إذا ظننت ان انسدال شعرك يمكن أن ينفذ موقفك.

قلت في إنجليزية رصينة وأنا أضغط على كل حرف:

- إيكاترينا؟..

-..........؟

- ما سبب هذه الكدمة حول عينك اليسرى؟!!

*   *   *

٨ - مطاردة الذئب..

صاحت في ارتباك وهي تعيد الشعر لتغطي عينها:

- هذا.. في باب.. ضربته.. هو في باب!..

أمسكت معصمها في حزم ونزعت خصلة الشعر..

- لا يا صغيرتي.. إنني أنا الذي وجهت لك هذه الضربة أمس.. حين كنت تلعبين دور المذءوب!.. وتكفل الظلام والرعب بجعلي أتخيل قوة غير عادية لك..

- أنا.. لا أفهم.. سيد..

- ثم الجروح في وجهي.. لا يمكن أن تحدثها مخالب أي حيوان.. بل هي آثار أداة قاطعة رفيعة كنت تمسكينها في قبضتك لتحدث تأثيرًا..

الدموع تملأ عينيها.. وكيانها كله يرتجف.. و..

وهنا انفتح الباب ورأيت أباها صاحب الحانة يدخل. نظرة متشككة إلى الموقف برمته ألقاها علينا.. ثم تصلبت عيناه على وجه (إيكاترينا).. وبالذات على.. عينها اليسرى، ثم فجأة بدت عليه علامات الفهم!.. أشار إليها وهتف شيئًا ما.. ثم إنه اندفع خارج الحجرة وهو يردد نفس العبارة مرارًا.. لا يحتاج المرء لكثير ذكاء كي يعرف أنه يقول: المذءوب هو ابنتي.. المذءوب هو ابنتي!!

التفت، إليها وصحت:

- أرجوك!.. لا وقت للتفسير!.. اهربي الآن!..

- لكن..
- اهربي!.. إن هؤلاء الأوغاد متعطشون للدماء، وستكون أسعد لحظة في حياة أبيك هي عندما تتاح له الفرصة للتضحية بك لإثبات ولائه للجماعة!..
- لكن..
- لن يفهموا شيئًا عن مرضك النفسي.. وسيلقون بك أرضًا ويقتلونك بسكين من الفضة.
- لكن..
- هيا.. اذهبي إلى الأب (أنطونيسكو) في الكنيسة واطلبي اللجوء.. واعترفي له بكل شيء.. أما أنا فسأحاول أن أنقذ الموقف، سأشرح لهم.

وهنا تعالى صوت الرجال في الطابق السفلي.. صيحات الغضب والثورة، إنهم قادمون فقد ناداهم المخبول، في سرعة ودون تردد أمسكت يدي (إيكاترينا) وفتحت الشباك - برغم الثلوج المحيطة به - وفي رفق ساعدتها على الانزلاق على طبقة الجليد العالية تحت النافذة.. ثم أشرت إليها أن تجري.. نظرت إلي لحظة في تردد.. ثم أطلقت ساقيها للريح..

ودخل الرجال الحجرة وقد بدا الشر في عيونهم، وقالوا ما معناه "أين هي" بالرومانية؟ فأشرت للنافذة، عندئذ أسرعوا بالنزول على السلالم لملاحقتها ولم يفت (إستبان) - بالطبع - أن يفتش الحجرة عدة

مرات قبل أن يصدق إشارتي، ثم نظر إلي نظرة شك.. ولحق بالرجال.

وجدت نفسي وحيدًا في الغرفة وربما في الحانة كلها..

فتحت الباب.. وتفقدت المكان حولي.. كانت هناك حجرتان في نفس الطابق كلتاهما مغلقة الباب، سرت في تؤدة إلى الباب الأول وعالجت مقبض الباب الصدئ.. فوجدتني في غرفة صغيرة نظيفة نسبيًا.. على الفراش قطعة من نسيج الكانافاه لم تتم.. وعلى المائدة في وسط الغرفة زهرية ورد رقيقة بها زهور ذابلة لا أعرف اسمها، كل شيء يدل على أنها غرفة أنثى.. (إيكاترينا) على وجه الخصوص.. ثيابها ملقاة في إهمال على

كرسي خشبي جوار الفراش.. ثم ديوان شعر مكتوب بحروف سلافية لا تعرف حتى الوضع الصحيح للامساك به.

كان تصرفي وقحًا وطفيليًا لكني كنت أريد أن أعرف.. لهذا مددت يدي المرتجفة الباردة إلى حشية الفراش وقلبتها.

كان هناك كيس قماش كبير مربوط بعناية، فتحته ومددت يدي فيه فشعرت بشيء كالفراء وأشياء كقطع بلاستيك مدببة. قلبت الكيس على الفراش فوجدت ما توقعته..

هناك - على الفراش - ارتمى رأس المذءوب الذي هاجمني أمس.. قناع مصنوع بإتقان غير عادي يكسوه الفراء.. والعينان حمراوان مضيئتان لكنهما

تسمحان للابس القناع أن يرى من خلفهما، وكان الفك السفلي المليء بالأنياب متحركًا. تحفة فنية حقيقية..

وجوار القناع كان قفازان من الفراء مزودان بالمخالب، ثم شيء يشبه حزام النجاة في السفن والطائرات.. عبارة عن أداة لتضخيم حجم الصدر والأكتاف حين تلبس تحت الثياب..

ثم - والأهم - أداة قاطعة دقيقة، ومجموعة سكاكين مختلفة الاحجام يمكنها تمزيق فيل....

وأخيرًا صورة شمسية صغيرة لشاب وسيم حليق الوجه يبتسم في بلاهة.

الآن أفهم كل شيء.. (إيكاترينا) هي (بيلاسكو) المذءوب الذي دوخ القرية وأفزع رجالها حتى الموت. هي أعدت هذه الثياب المتقنة لنفسها.. وشرعت تخرج في



هناك ـ على الفراش ـ ارتمى رأس المذءوب الذى هاجمنى أمس .. قناع مصنوع بإتقان .

كل ليلة مقمرة بحثًا عن التعس الذي يوقعه حظه العاثر في قبضتها، ومع كل الرعب والمفاجأة لم يكن أي واحد على استعداد للدفاع عن نفسه.. لم يحاول أي واحد على الاطلاق أن يفعل.. وفي الظلام كانت تمزقه بالسكاكين التي تخفيها معها.. ثم تفر وتعود لدورها الأصلي.. ابنة صاحب الحانة الرقيقة، ومن حين لآخر تخبر المغفلين أمثالي بقصة المذءوب مجروح الرأس.

ولكن لماذا تفعل ذلك؟.. لماذا؟..

* * *

- د. (رفعت)!

هذا صوت (جوستاف) يناديني.. لقد استيقظ الآن فقط من نومه بعد إجهاد السُكر ليلة أمس، وقد بحث عني في الحانة فلم يجد لي أثرًا ولم يجد أحدًا يسأله.

- هذا أنا يا (جوستاف).. أنا هنا..

صعد إلي في الطابق العلوي حيث وقفت في غرفة (إيكاترينا).. وعلى الفراش وجد أنياب المذءوب، فصاح في غباء:

- هل.. هل قتلته؟ وسلخته أيضًا؟

- يا لك من معتوه!

وفي كلمات سريعة شرحت له كل شيء..

- والعمل؟

- أول شيء.. سنذهب للكنيسة لنواجهها بما نعرف..

- ثم

- ثم نتدبر إخفاء الأمر أو إعلانه حسب ما يكون تفسيرها.. قد تكون قاتلة تستحق الإعدام وقد تكون مريضة انفصام تستحق العلاج، لكن مهما كان لن نترك الأمر للعدالة الجماعية في هذه القرية المنكودة.. يجب الذهاب بها إلى (بوخارست) بأي ثمن.

* * *

في الكنيسة قابلنا الأب (أنطونيسكو).. سألته همسًا عن الفتاة فقال لي إنها لم

تأت.. أقسمت له إننا لن نؤذيها.. فاحتد غضبًا مؤكدًا أنه لا يكذب..

إذن أين ذهبت هذه التعسة؟.. وهل نجح الرعاة في الإمساك بها قبل أن أتمكن من.. علينا الآن أن نبحث عنها.

وهنا تذكرت شيئًا فأخرجت صورة الشاب الوسيم التي كانت في حجرتها.. وقربتها من نظارة القس.

- هل تعرف هذا الشاب يا أبت؟

لم يعط القس فرصة الترجمة (لجوستاف) لأنه قرب أنفه من الصورة.. وهتف:

- آه!... (ميخائيلسكو)!

ثم قال بضع كلمات أخرى.. ورسم علامة الصليب.. قال (جوستاف):

- يقول إن اسمه (ميخائيلسكو)..
- هذا واضح!.. أنا لست حمارًا على كل حال..
- وأنه ابن العمدة.. كان مذؤوبًا وهاجم (ستيفانو)، لكن (ستيفانو) أطاح بساقه بالفأس، وفي الصباح بدت قصته عن ظروف بتر رجله ملفقة وسخيفة لهذا أدركوا أنه المذءوب.. وقتلوه!..
- وبالطبع هذا الفتى كان يحب (إيكاترينا)؟
دارت محادثة سريعة بينهما أدركت من خلالها أن الاجابة نعم.. إذن هذه هي القصة.. قصة حب عنيفة بين الشابين مرهفي الحس.. ثم تفقد الفتاة حبيبها نتيجة خرافة أو قصة مغرضة صاحبها

(ستيفانو)، لهذا تصمم أن تنتقم وأن تحيل لياليهم المقمرة إلى جحيم.. كأنها قالت: حسن.. أردتم مذؤوبًا فلكم هذا**!!**، وشرعت في كل شهر تقتل أحد الذين كانوا مسئولين عن موت حبيبها، ثم اختارت ميتة بشعة لـ(ستيفانو) عن طريقي أنا.

كانت تعرف أن رأسه مجروح لهذا أدركت أن اختيار ليلة الأمس سيؤدي لقتله كما مات حبيبها، ولما سارت الرياح لا كما تشتهي هي.. وكاد (ميلو) يفقد حياته، ارتدت ثياب المذءوب وانتظرت كي تهاجم أول من يغادر الحانة.. وكنت أنا بلا فخر**!**..

- ما التفسير الذي قدمه (ميخائيلسكو) لفقد ساقه؟

- قال لهم إنه فقد وعيه ليلًا في أثناء سيره في الغابة.. وحين أفاق لم يجد ساقه.. ووجد الجرح مربوطًا ببراعة كي لا ينزف، من ثم جر نفسه إلى داره.. وارتمى فوق فراشه مغشيًا عليه حتى أيقظوه صباحًا ليتهموه بأنه مذءوب!

قصة غريبة صعبة التصديق، لكن إذا تخيلنا - بشيء من التمادي - أن (ستيفانو) كان يحب (إيكاترينا) هو أيضًا.. يمكننا أن نكمل القصة.. كان يستطيع أن يضرب الفتى في أثناء سيره في الغابة، ويقطع ساقه بالفأس.. ويضمدها.. ثم يجري للقرية ليعلن قصته المزيفة عن المذءوب، وبهذا يتخلص من منافسه بطريقة نظيفة وبحكم إعدام جماعي.

لكن (إيكاترينا) كانت هناك، وقد قررت أن تكافئ القرية بمذءوب حقيقي!

* * *

آخر سؤال وجهته للقس قبل أن ننهي حديثنا كان:

- كيف بدأت قصة المذءوب في القرية؟

نقل له (جوستاف) سؤالي، فهز رأسه في إرهاق.. وابتسم وشرع يتكلم.. قال (جوستاف):

- يقول إن هذا حدث من قرون، منذ عهود القرون الوسطى، عائلة (سخاروزان) الاقطاعية كانت تحكم البلاد بالحديد والنار.. لكن اللعنة أصابت نسلهم.. كان أطفالهم يولدون مذءوبين.. وكان

المرض يبدأ باسوداد لون البول ومغص في بطونهم.. ثم يتحولون لمسوخ ذئاب.

بول أسود ومغص؟.. مسوخ ذئاب؟.. إن هذا يذكرني بشيء ما.. نعم.. هو كذا.. صحت بـ(جوستاف):

- إن القصة كانت هكذا.. لكن الحقيقة أنهم كانوا مرضى بمرض له أسباب علمية وعلاج.. هذا المرض أسماه القدامى (مرض الرجل الذئب).. أما إسمه العلمي فهو (بورفيريا)[5].

هذا المرض ناجم عن اختلال تمثيل الحديد في الجسم.. من ثم تحدث أعراض عديدة منها المغص والبول الأسود، وفي حالات نادرة تستطيل الأظفار وتبرز الأنياب ويتجعد الجلد، تصير الحواجب

كثيفة والشفاه مشققة والعينان حمراوين.. ثم يتجنب المريض الشمس لأنه لا يتحملها!!..

- باختصار يتحول إلى...

- يتحول إلى ذئب بشري!.. وبمرور الوقت تولد الأسطورة.. وتعيش في النفوس، ويستغلها بعضهم لقتل زوجته أو منافسه في الحب، أبدًا لم يوجد على الارض رجال ذئاب.

هتف (جوستاف) في جزع:

- رائع!.. ولكن هلا اختصرت هذه المحاضرة العلمية إلى أن ننقذ الفتاة؟

يا الله!.. لقد نسيتها تمامًا.. غمرتني نشوة أن أجد تفسيرًا هذه المرة لهذا اللغز من ألغاز التاريخ، وللحظة ظننت أنني

خليط من (شيرلوك هولمز) و(لوي باستير).. وفاتني تمامًا أن الوقت غير مناسب لهذا..
- فلنسرع!.. واشكر لنا الأب (أنطونيسكو) بشدة!..

* * *

عند المقابر وجدناهم.. الدماء تلطخ الجليد الأبيض.. وهم جميعًا واقفون في صمت وقد نكسوا رءوسهم.
على الثلوج كانت ممددة وشعرها الاسود الجميل ينتشر حولها ملطخًا بالدم والثلج.. وفي صدرها كان نصل طويل غائصًا إلى نصله.. نصل من الفضة.. في حين وقف قاتلوها حولها يلهثون في إعياء.

لقد تأخرنا كثيرًا.. كثيرًا جدًا.

وعلى قدميها ارتمى أحدهم يبكي ويغسلها بدموعه، كان عاري الرأس وفي فروة رأسه جرح قطعي طويل.. لقد فقد (ستيفانو) حبيبته الرقيقة أمام عينيه وهو الذي فعل كل الفظائع التي فعلها لتكون له وحده.. لكني لا أشعر بأي نوع من الرثاء له.

أخذ (جوستاف) ينشج في صمت، وسالت دمعتان دافئتان على خدي سرعان ما تحولتا إلى ندفتين من الثلج جوار فمي.

ودون كلمة أخرى تأبط (جوستاف) ذراعي وأخذني بعيدًا عن هذا المشهد المروع.

لقد انتهت أسطورة الرجل الذئب.. انتهت للأبد، لكني لست فخورًا على الإطلاق بدوري فيها.. لست فخورًا على الاطلاق.

والشمس تغرب فوق المقابر في سكون.

❋ ❋ ❋

٩ - الخاتمة..

في مطار (بوخارست) صافحت (جوستاف) وشكرته على كل شيء، ثم إنني طلبت منه أن يكتب لي باستمرار.

تحسس الجرح الذي في وجهي وهتف باسمًا:

- إذا تحولت إلى مذءوب يوم الخميس القادم لا تنس أن تكتب لي!..

لم أبتسم.. وقلت في كآبة:

- أرجوك ألا تعود لهذا في خطاباتك!..

- أوه!.. لننس الماضي..



على الثلوج كانت ممدّدة وشعرها الأسود الجميل ينتشر حولها ملطخًا بالدم والثلج ..

أشعلت سيجارة.. وتأملت المسافرين المتجهين لصالة الجوازات.. وسألت:

- هل نشرت القصة؟

- لا..

- ولمه؟.. إنها مثيرة برغم كل شيء..

- المكتب الثقافي في الحزب..

وتلفت حوله في حذر ليتأكد أن أحدًا لا يسمعه.. ثم أردف:

- قالوا إن قصتي خيالية.. و.. رجعية.. ولا تخدم أيديولوجية الحزب.. ثم إنها تتهم رعاة الجنوب بالتخلف!!

- ربما كان هذا أفضل..

وصافحته للمرة الأخيرة.. واتجهت لصالة الجوازات، ناداني في لهفة صائحًا:

- حاول أن تعود لرومانيا قريبًا.. تنتظرك أشياء رائعة في قلعة الدكتور (فرانكنشتاين)!

- لا مفر من ذلك!.. لكني سأتعلم اللغة الرومانية أولًا..

- وداعًا.. يا رفيق، تحياتي لأبي الهول!

وأقلعت الطائرة..

كنت أظن أنني عائد إلى عالمي الهادئ الناعم، ولم أكن أعرف أنني سأواجه كابوسًا جديدًا في قريتي الصغيرة و.... لكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة ١٩٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية

بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

أسطورة مصاص الدماء

أسطورة الرجل الذئب

روايات
مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايــات تحـبس الأنفــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة
الرجل الذئب

تعالوا معي إلى غابات
رومانيا الباردة حيث أكواخ الحطابين
، تعالوا معي إلى الليالى المقمرة حين يكتمل
البدر .. تعالوا معي لتصغوا لصوت عواء الذئب
الذي يجمد الدم فى العروق .. الذئب الذي كان رجلاً
.. خذ الحذر .. وتأمل فى وجوه من حولك ، فأحدهم
هو .. وحين يكتمل البدر فى المرة القادمة لربما تحول
إلى مذءوب أمام عينيك المذهولتين .. وحين يهاجمك
المذءوب حاول أن تنتزع منه مخلبًا .. ففى الصباح
قد يتحول هذا المخلب إلى إصبع بشري .. إصبع
إنسان تعرفه .. صديقك أو ... حبيبتك ..!
!... تعالوا .. تعالوا إذا جرؤتم

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة النداهة

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

حقيقة

[←2]

الاسم المجري لدراكيولا

[←3]

(إدجار آلان بو) الشاعر الأمريكي العبقري.. كتب أرق قصائد الحب مثل (آنابيل لي) وأفظع قصص الرعب مثل (قناع الموت الأحمر) و(الحشرة الذهبية) و(سقوط منزل آشر

[←4]

اللاي: عملة رومانيا

[←5]

حقيقة!